د. محمود عثمان

إبليس في الجنة

روايـــة

الفارابي

الكتاب: إبليس في الجنة
المؤلف: د. محمود عثمان
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-625-1

© جميع الحقوق محفوظة

تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

العازف

من كان ساعي بريد
بين السماء والأرض
أصبح عازفاً...

لقد عاد إلى مهمته الرتيبة. مهمته العظيمة الرتيبة. يردد بصوته النوراني في السماء: قدّوس قدّوس، الحمد لك والشكر لك.

وعندما يأتي المساء، يعود إلى بيته السماوي مطمئناً.

يطوي جناحيه في الظلام كطاووس مهزوم. وصغار الملائكة تفرد أجنحتها حوله زهواً.

يشعر إمام الجوقة بالحزن. يتذكر ماضيه المجيد بأسى بالغ.

وقد يطلب إجازة من اللَّه، كي يشرع بتدوين مذكراته.

العازف العظيم، اشتاقت روحه إلى ضمّة من نبي، أو نفحة من قديس.

سألته أن يضمني بجناحيه فأبى. قال إن تمسسْ جناحيّ تحترق.

فإذا أردت أن تسمعني، فاجلس في آخر الليل، على شاطئ نهر «الغانج».

واسمع تراتيل

العاشق الذي في السماء.

مع الأنبياء

كان جبريل أمس يتنزه على ضفاف الجنة منادياً:

أنا العازف، من نديمي؟

أنا الروح القدس، من خليلي؟

أنا الظامئ الذي كان يسقي كؤوس الوحي، من يسقيني؟

مرّ على ضيوفه القدامى فرداً فرداً.

ودخل أولاً خيمة آدم وقال: هل لي أن أسهر معك الليلة، في فردوسك الأعلى. فأجابه إنّ ضيوفي اليوم كثر، فاختر لك أحد أبنائي.

أعترف أنك كنت لي في الأرض معلّماً، ولا أنسى الأسماء التي علّمتنيها؟

فخرج، ثم دخل خيمة إبراهيم فوجده يداعب بلطفٍ قرني كبش من المسك، فقال له:

جئتك اليوم ضيفاً، فاذبح هذا الكبش وقل لابنك أن يأتينا بأقداح الخمر والعسل.

فأجاب إبراهيم: هذا هو الكبش الذي فدى ابني في الدنيا. وأخشى إن ذبحته أن أغضب الله، وأن لا أكون من الشاكرين.

فخرج، ثم دخل خيمة موسى ونادى: ألقِ الألواح يا موسى واخرج إلي. خرج موسى فألفى جبريل لدى الباب فهتف:

مرحى أيها الساقي العتيق. هل لديك جرعة واحدة من ذلك الماء المقدس الذي كنت تأتيني به في الدنيا. فقال له جبريل: لقد جئتك اليوم مستسقياً.

فاملأ كؤوسك من رحيق جنتك واسقني. أو دعنا نحيي الليل نديمين على ضفة نهر السلسبيل، وحولنا آلاف من الحوريات العين، والولدان المخلّدين.

فأجابه موسى غاضباً: إن قراءة ألواحي خير مما تدعوني إليه. إذهب إلى هارون أخي، لعله أفرغ قلباً مني.

فخرج، ثم دخل خيمة هارون وألقى التحية عليه قائلاً: لقد أرسلني إليك ابن أمك، وقال إنك أهدأ بالاً، وأفسح وقتاً، وأميل للأنس منه. فأنا ضيفك الليلة، على نهر العسل حتى الصباح. فأجاب هارون: الله الله وأنشد شعراً:

نديمَ الوحي إن القلب سكرانُ
فلي في البيت أصحابٌ وخلّانُ
ولي حُور على نهرٍ وولدانُ
فجئني عندما أصحو ولي شانُ!

فخرج، ودخل خيمة عيسى، فرحّب به، وأجلسه على كرسي من النور، فقال جبريل:

أنت أخ كريم، وصديق قديم. وسنسهر الليلة معاً، نتذاكر شؤون الدنيا وشجونها. فقال عيسى: دعك من الدنيا وذكرياتها الأليمة، نحن في الجنة لا همّ ولا ألم ولا خوف ولا حزن. ويعزّ عليّ أن تكون ضيفي، وأنا اليوم صائم عن الطعام والشراب ثلاث ليالٍ

وأربعة أيام. هذه جرّتي طافحة بالنبيذ فاشربها، وأطفئ غلتك أيها الروح القُدُس.

عندئذٍ حرك جبريل جناحيه المتعبين وقال: عم مساءً يا صاح! أجميع الأنبياء مشغولون عني الليلة؟ ألا أستحقّ أن أكون لكم نديماً، وأنا الذي كنت أسقيكم من الوحي كؤوساً، وألقنكم من الله دروساً.

فحنى عيسى رأسه حياءً، وقال: أنت خير نديم يا صاح، وإنني لأقسم بالجنة وما فيها، أنك أحق بالتكريم والتبجيل من كثير من سكانها.

إن موعدنا غداً، عند النبي الأمّي، سأجيء والأنبياءَ لتكريمك. وسيلتقط لنا المصورون على ضفاف الجنة صوراً تذكارية.

إبليس يدخل الجنة

عندما أصدر الرب مرسوم التوبة على جميع خلقه، بعد أن عاقب المجرم وجازى المذنب وزجر المسيء، فتحت لإبليس أبواب الجنة فدخلها بحفاوة. وليس كما دخلها خلسةً من قبل في بطن أفعى. وعندما وجد الجنة ونعيمها، وجبالها وأنهارها، وفراديسها العجيبة، وأوديتها الرحيبة، أرتج عليه.

وأمسك الله قلبه أن يقع ويغمى عليه، كما صعق موسى في الطور.

ومن فرط النشوة خلع إبليس ثيابه، ومضى عارياً مذهلاً، يرقص مدبراً ومقبلاً، ثم قاده أحد الحرّاس الشداد إلى شجرة الحياة في وسط الجنة فأكل منها ما لذّ وطاب. ثم أخذ ما هفّ إليه من الشراب. وخرج الطعام من جلده مسكاً، يُشمّ ريحه من أقاصي الجنة

وأطرافها. ثم عرته قشعريرة لذيذة، ونشوة عظيمة، فأحسّ بريش ينبت في كتفيه ويديه ورجليه، ثم نما الريش فصار أجنحة كبيرة، شهية الجمال، غريبة الجلال.

وهكذا أصبح إبليس ملاكاً، بل أصبح في الملائك سيداً، كما كان في الجن مارداً، وبدأ طوافه في الجنة.

مع آدم وحواء

عند الباب الخلفي للجنة، كان أحدهم يحمل جرساً من النارنج، وكانت دونه غمامة من الأجراس المعلّقة على الأشجار، فيها أولاد يسبّحون الله، ويقرأون سورة الفاتحة منشدين بصوت واحد مجلجل، كأنه خفقان أجنحة الملائكة، «آمين». فتجيب الأشجار «آمين» وتجيب الأنهار «آمين». وثمة في الملأ الأعلى جوقة من البلابل الملأى بأرواح الشهداء والقديسين، تسبّح شجواً: طبت روحاً.

أيها الرفيق الأعلى.

وعلى ضفة نهر التوبة، كان إبليس يجلس وملاك الرحمة على أريكة من خشب الفردوس، يتبادلان الزفرة وهواءُ الفردوس يهب من أقصى الجنة، فقال

إبليس، ما أطيب هذه الريح، تذكرني بقول الشاعر في الدنيا:

تـمـتـع مـن شـمـيـم عـرار نـجـدٍ
فـمـا بـعـد الـعـشـيّـة مـن عـرارِ

فهزّ ملاك الرحمة جناحيه غبطة، ونقّطت السماء أجراساً صغيرة من الدمع في كؤوس تشبه الأكمام التي لم تمسَّها يد العاشق. قال الملاك: كيف خرجت من الجحيم، أيها المارد الرجيم. أجاب الشيطان في قهقهةٍ:

أتقنط من رحمة الله أن تنفجر من أصابعك يا ملاك الرحمة، ألم أكن خادم الله في الدنيا وإن عصيت، ألم أكن بطل الرواية التي أخرجت صاحبيك من الجنة، ألم أوسوس لهما لأصبح سيد اللعنة، ألم أكن رئيس جهاز الأمن الإلهي في الدنيا، ما لكم تَتْفلون في وجهي كراهيةً وحقداً، وأنا أبصق في وجوهكم المسك! ألم أكن أجري في شرايين الناس

أتجسس على دمائهم وقلوبهم التي تخفق في صدورهم؟

لقد أصدر الملك مرسوماً إلهياً بتبرئتي والغفران لي، لأنني قمتُ بدوري الخطير في الدنيا على أحسن وجه، إذ كنتُ أبتسم مشفقاً في وجوهكم العابسة، وألسنتكم التي تمطرني اللعنات بكرة وعشياً، فيما كانت أرواحكم ترقص عندما تراني. أنتم ضحايا وسوستي أيها الناس، كما كان أبواكم من قبل. لقد كان ثمة اتفاق بيننا إذن. أنتم تحمّلونني تبعة معاصيكم، وأنا أعبث بكم كما تعبثون بأطفالكم.

قه. قه. قه.

في هذه الآونة، كان آدم وحواء مضطجعين على سريرٍ من المسك، في ربوة شرق الجنة. يشاهدان من خلال الغمامة إبليس وصاحبه إذ هما يتشاجران. وهبّت نسمة عطرية فإذا آدم يمشي ضاحكاً، يرافقه اثنان من الحرس الملكي، فحيّاهما وعانق إبليس عناقاً حاراً،

فإذا الزبد يعلو والأمواج تُغرق الأشجار النائمة على ضفاف النهر...

وصاح آدم: مرحى أيها الرفيق! كم أنا مدين لك بهذه النعمة، وإن أنسَ فلا أنس ذكرياتٍ لنا في تلك الجنة قبل أن نُطرد منها. لقد علمتني التمرد والغواية اللذين لا طعم للعيش من دونهما. أنا وزوجي كل مساء، نشاهد في سينما العالم السفلي شريط زفافنا الجميل، أيها الإشبين لن أنسى لك الفضل.

يقولون أخطأتُ ولو لم أخطئ لما ذقت حلاوة الغفران إذ تاب عليّ ربي.

ويزعمون أن زوجي خانتني مع الشيطان. كلا لم تخن. أنا الذي خنتُ عهدي مع الله إذ نسيت. إنني ألتمس العذر لإبليس لأن بذرة الغواية كانت في نفسي. لقد خُيّرتُ بين الجنة وتلك الشجرة.

فاخترت الشجرة الملعونة التي نهيتُ عنها. إن النهي يا سيدي هو الذي أغراني. أعترف لكما يا

صاحبيَّ، بأنني لم أكن مذنباً وإن عصيت. ولو أعيد الاختيار ثانية لاخترت الشجرة.

تعالا معي إلى تلك الشجرة في أعلى الربوة، تحتها تجري ثلاثة أنهار من العسل الأبيض والأسود والأصفر. وعلى ضفة كل نهرٍ تنبتُ الحورُ العين عند كل شهقة أو زفرة، منهن الشقراء والبيضاء والسمراء لهن جلود ترشح بالمسك وعيون يغشاها النعاس، يرتلن عندما يضعن ثيابهن:

إن العيون التي في طرفها حَوَرٌ
قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

هذه الشجرة أطيب أشجار الجنة مذاقاً، وأعلاها ساقاً، وأورفها أغصاناً، وأجملها ألواناً. جذوعها المجد، وأغصانها الحب، وأوراقها المعرفة، وثمرها الحكمة.

وكانت حواء، كلما اشتاقت إلى آدم، تمد يدها إلى تلك الشجرة الطيبة، فتأكل منها وتنام.

حواء وصاحباتها

في اليوم التالي، نهضت حواء واغتسلت، فأخذت الأنداء ترشح كالجمان من سقيفة أمام باب قصرها. وأمرتْ جاريتها أن تُعدَّ القهوة لزائراتها وهن سبع من الحوريات. فكان صباحاً نسائياً بامتياز. وأخذن يثرثرن مغتبطات أمام شلال من النور الممزوج بالكوثر.

قالت الأولى وهي تضع إحدى قدميها في الماء: كنت في الدنيا امرأة دميمة وأحسنت الإيقاع برجل وسيم. كأن زواجه بي كان تكفيراً عن قبحي وعقوبة لجماله. وعشت أباهي النساء الجميلات بسحري وذكائي. أما هنا فأنا شقية إلى حد ما، لأنني أشعر بأنني مجرد رقم من الأرقام. وبتعبير أدق، أنا واحدة من سبعين امرأة...

فقاطعتها الثانية قائلة: لستُ أفضل حالاً منك...

كنتُ مليكة جمال في الأرض، وكان الرجال يتهافتون عليّ ويقفون طوابير في باب منزلي. فأضرب المواعيد لمن أشاء، وأصرف منهم من أشاء. كنتُ أبتزّهم كثيراً، حتى أصبحت ذات ثراء وجاه. أما الآن فأنا مجرد ثمرة في سلة من الثمار النضيجة.

وأخذت الثالثة رشفة ناعمة من فنجان قهوتها وقالت: لا أشعر بأنني امرأة مميزة كما كنت من قبل. لكأنني واحدة من السبايا في بلاط السلاطين. وأنا أرفض أن أكون وعاءً من أوعية الشهوة على مائدة رجل واحد.

أما الرابعة، فقد انتصبت مغضبة وقالت: لقد فقدت شيئاً ثميناً كان يعذبني ويسعدني في آن. أين تلك الحرائق التي كانت تشتعل في دمي وثيابي عندما أرى حبيبي يقعد بجوار امرأة أخرى. أنا الآن لا أشعر بالغيرة. آهٍ ما أتعسني!

وقالت الخامسة، بعد أن وضعتْ ساقاً على ساق: أنا سعيدة بلقائك يا سيدتي، وفرحة بكنّ

جميعاً: نحن في سلام دائم ونعيم لا ينقطع. يكفي أننا مرتاحات من عذاب الحمل والوضع وصراخ الأطفال، نحن سيدات مجتمع الجنة، لا شيء يشغلنا عن الحب واللذة.

ووافقتها السادسة فأضافت: أي رفيقاتي، يكفي أننا لم نعد ناقصات عقل ودين. إننا نتزوج دون ألم ولا يرشح منا سوى عطر زكي. ثم نعود أبكاراً، ثم نتزوج. وهكذا. وفي هذا التجدد لذة لا توصف ونشوة لا تضاهى.

وهنا تدخلت صاحبة القصر فقالت: عجباً لكنّ، لا يرضيكن شيء، أشكوى وأنتن في هذا النعيم؟

الحاج الأحمر

وذات يوم، خرج إبليس يتحسس أخبار الجنة، ولمّا ولج إحدى غاباتها الوارفة، وجد شيخاً أمرد، يعتمر قبعة بيضاء، وكان يُعرف بـ «الحاج الأحمر» من قبل، لحمرة تضرب بياض خديه.

واقترب إبليس من الشيخ الذي يقعد في ظل شجرة ضخمة من أكبر أشجار الجنة، وأرسخها جذوعاً، كأنها شجرة بلوط تزين أفنانها أزهار حمراء وبيضاء وصفراء. وعليها الطيور من كل لون وصوت.

ثم أدى إليه التحية قائلاً:

ـ مرحى يا صاح... السلام عليك!

فحدق إليه الشيخ قليلاً وأجاب:

ـ من الزائر؟

ولم يشأ إبليس أن يكشف عن نفسه، فما زالت

نزعة المكر والتجسس تجري في دمه، فقال له: كنتُ حطّاباً في الأرض، ولذا فأنا أبحث عن شجرة تظللني وجذع يسند ظهري، فإن الأشجار لا تنسى. وهي تمسك ظلالها عندما تراني. ولكن بالله عليك قل لي من أنت أيها الشيخ الواجم الكئيب؟

فأجاب: أنا «الحاج الأحمر» الذي لم يسعد في الدنيا، وعاش أكثر أيامه وحيداً، تزوجتُ امرأة طيبة، ولكنني لم أرزق ولداً.

انتظرت السنين الطويلة ولم أرزق ولداً. صلّيت وصمت وزكيت وتصدقت ولكنني لم أرزق ولداً. قصدتُ وزوجي البيت الحرام وطفت حول الكعبة المشرّفة سبعين مرة ودعوتُ ربي وتضرعت إليه، ولكن لم يقدر لي أن أرزق ولداً. ثم ماتت زوجي فصبرت ولم أتزوج بأخرى. وقضيت بقية أيامي وحيداً حزيناً. ثم دب فيّ المرض وتورمت قدماي وصدق فيّ قول الشاعر:

دب فـيّ الـسـقـام سـفـلاً وعـلـوا
وأرانـي أمـوت عـضـواً فـعـضـوا

وعندما قُبضت روحي، مشى في جنازتي رجلان فقط، مسكينان مثلي. علماً أنني مشيت في جنازات كل من ماتوا قبلي من أهل القرية. وقُبيل حَيني مشيت وحيداً في جنازتي. فالشيخوخة كما قيل هي الجنازة التي يمشي فيها الإنسان على قدميه. أعني الإنسان الذي يحمل تابوته على ظهره ويدفن في الروح أحلامه الحدباء.

وجزاني الله الجنة بما صبرت. فرُحْتُ أعبّ من ملذاتها ومطايبها لأعوض عما فاتني من متع الدنيا ونعيمها. واستطعت أن أروي عطشي القديم إلى النساء، إذ تزوجت المئات من الحور الأبكار، وقضيتُ منهن الأوطار. كما حظيتُ بزوجي الصالحة فأكرمتها وأحييت معها الليالي الملاح، وذكريات الأفراح.

ومع كل هذا النعيم، والخير العميم، لم ترتوِ روحي، ولم تُداوَ جروحي. فالولد الذي حلمت به في الدنيا، لم أرزقه في الآخرة. إنني أتذكر دائماً حسرتي وغيرتي عندما كنت أرى جاري يداعب طفله ويناغيه، أو يضع سبّابته في فيه. ولا أنسى حرقة زوجي، ولسعة قلبها عندما رأت امرأة جاري ترضع طفلها من ثديها المدرار باللبن. فجاءتْ إليّ باكية، ثم اشتريتُ لها دمية تسلّيها، وترضعها وتناغيها، وتلحس أصابعها كثيراً، كما هيأتُ لها مشطاً ومرآةً وسريراً.

أجل يا صاح، إنني أشتهي ولداً يخرج من صلبي، ويحمل اسمي، ويكبر رويداً رويداً أمام عيني... إنني لا أطيق هؤلاء الأطفال المخلدين الذين لا تربطني بهم شهوة ولا عاطفة، لأنهم ليسوا قطعة من روحي.

لقد تحولتُ دون أن أدري إلى مُدمن للراح. فالنشوة الوحيدة هي أن أنسى، والعلاج الوحيد هو أن أشفى من ذاكرتي.

أما زوجتي فقد نصحتها أن تعود، إلى هوايتها القديمة، تربية الطيور. إنها تمنحها الشعور بالأمومة.

وهنا أطرق الشيخ قليلاً، فقعد إبليس إلى جانبه، مسنداً ظهره إلى تلك الشجرة الضخمة التي تجري من تحتها ساقية من الخمر الصافي وصاح بصوت مرتفع:

إسـقـنـي واشـرب عـلـى أطـلالـه
واروِ عـنـي طـالـمـا الـدمـع روى

القرد الأصلع

ذات يوم، وفيما كان إبليس يتنزه على إحدى الضفاف، كان ثمّة قرد أصلع الرأس يتسلق الأغصان ويقفز من شجرة إلى أخرى.

وعندما رأى القرد إبليس يمشي حالماً، أخذ يقطف الثمار النضيجة ويلقيها في الماء الجاري بين ضفتيّ الطريق. وسمع إبليس جلبةً فنظر إلى أعلى، فرأى القرد الملعون يقهقه حيناً ويأكل لباب الثمر ويرمي بالقشور في الماء حيناً آخر. فصرخ به إبليس: قل لي ما خطبك أيها القرد باللّه عليك!

فصمت القرد ولم يجب، فأنطق الله الشجرة التي تسلقها فقالت:

كان هذا القرد في الدنيا رجلاً فقيراً وسخاً وطيباً، أصلع الرأس، يلبس العمامة عندما يذهب إلى بستانه،

ويخلعها عندما يعود إلى كوخه. وكان عادة يكشف عن صلعته المخيفة للأطفال فيزعقون ويهربون أو يُصابون بالإغماء.

لم يكن مجرماً بل كان شريراً طيباً. يرفث ويسبّ دون أن يعني ما يقول أو يعي ما يتكلم. الحق أقول لك يا سيّد الجن، كان طاهر الشر، بريء الغضب، من أولئك المساكين الذين تمنى النبيُّ أن يُحشر في زمرتهم.

كان وجهه منتفخاً كرغيف ساخن، وبطنه ملآن بالديدان النيئة، وفي المساء كان يدخن النارجيلة ويملأ جوفه من دخانها الأسود دون اكتراث لتذمّر امرأته وشكواها.

تلك المرأة التي كان يضاجعها كيفما اتفق دون أن ينزع عنها كامل ملابسها، بل كان يبحث في الليل عن أي ثقبٍ فيها..

أجل يا سيد الجن، كان يخيف الأطفال عندما

ينزع العمامة عن رأسه، وكأنه أبو دلامة، الذي قال عن نفسه:

إذا نـــزع الـــعـــمـــامـــة كـــان قـــرداً

وخـــنـــزيـــراً إذا لـــبـــس الـــعـــمـــامـــه

وحين مات هذا الرجل، لم يجد أحداً من الناس يمشي وراءه، سوى زوجته وجاره العجوز. بل إن زوجته ظلت يومين كاملين تفتش عن كفن مرقعٍ تغطي به جثته الباردة العفنة. وهكذا، أدخله الله الجنة وجعله قرداً فرحاً، وجعل زوجته سلحفاة عزلاء تحبو على الضفة الأخرى.

الضفادع

وغادر إبليس القرد وتابع سيره، ولما جنّ عليه الليل وجد نفسه أمام بحيرة لازوردية صافية، ينزلق عليها شعاع فضي من قمر نوراني كأنه الزئبق. ثم سمع نقيق الضفادع القمرية على شاطئ البحيرة، فأحس بشعور غريب من الغبطة في هذا الجو السحري الهادئ، وشعر بالنعاس، فوضع خده على يده ونام.

ولكنه ما لبث أن استيقظ فجأة على دبيب الضفادع التي غلغلتْ في ثيابه، وقفزت على يديه ورجليه، فقعد كالمسحور، ونظر إلى هذه الضفادع العجيبة، ذات الجلود المشعّة كالتبر، والعيون المضيئة كاللآلئ. فتأوه وقال: يا سبحان الله!

وتقدمت منه الضفدعة الكبيرة الملوّنة وقالت: لا تعجب من أمرنا ولا تخف. نحن ضفادع الجنة أقزام

الشعراء، كنا نكتب الشعر حسداً وغيرة. لم نكن ذوي موهبة، ولم يتنزل علينا الإلهام.

كنا نسرق المعاني والألفاظ من أهلها، وننسبها لأنفسنا، مَثَلُنا مَثَلُ الدجاجة التي تقوقئ لكي يحسبوا أنها التي باضت وخرج من بيضها الفراخ.

نحن يا سيدي، لم نكن نحسن التغزل بالكلمات، ولم نعرف كيف نراودها عن نفسها، كما لم نملك الجرأة على اغتصابها.

كنا نضاجعها تملقاً دون رغبة في الحب أو شهوة في العناق.

كانت قصائدنا مزعجة كالنقيق. أما نقيقنا اليوم فمؤنس وممتع. أليس كذلك؟

فتبسم إبليس من قولها ونهض وقال: كل ما في الجنة رائع مدهش. ثم وضع في جيبه ضفدعتين صغيرتين لتؤنساه قليلاً في وحشة الظلام.

وادي الفراشات

وفي الصباح الباكر وصل إبليس إلى وادٍ من أودية الجنة، يُسمى وادي الفراشات. فطفق يمشي فيه متخفياً، حيث تحط آلاف الفراشات على الأشجار وتحت الصخور. الأرض مفروشة بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر. إلى أن أبصر خلف السياج رجلاً يجلس في ظل صخرة يأكل ويشرب من رحيق كالصمغ يخرج من بطون الفراشات، فصاح إبليس: يا للدهشة ماذا أرى، ما قصتك أيها الرجل؟

فتنهد الرجل وقال: تزوجتُ في الفانية امرأة عاقراً، وكنت أحبها حباً شديداً، وصبرتُ عليها سبعة عشر عاماً دون أن أنكح أخرى.

ثم تزوجتُ امرأة ولَّدت لي طفلة شقراء، سماوية العينين، ذكية وجميلة، فأحببتها حباً جماً بلغ مستوى العبادة. إنها ثمرة حرماني الطويل، ذقت منها حلاوة الأنس وطعم السعادة. وفي أحد أيام الربيع، خرجت من بيتي إلى البستان البعيد، فلحقت بي وتشبثت بإحدى رجليّ، فلم أستطع أن أمنعها من مرافقتي. وأنا الذي تسبيني بإشارة من إصبعها أو لثغة من فمها. ورافقنا أيضاً ولد يافع لأحد الجيران، وكان يحمل بندقية صيد. وعندما وصلنا إلى البستان، راحت الطفلة تقفز كالفراشة بين الزهور، وانصرفتُ إلى بناء جدارٍ يريد أن ينقض. وبعد برهةٍ، سمعت صوتاً مثل أزيز الرصاص، فقمتُ مسرعاً إلى جهة الصوت، وحسبتُ أن الفتى قد صاد عصفوراً، والحقيقة أنه اصطاد عصفورة ساحرة هي ابنتي. إذ أراد أن يداعبها مازحاً ولم يدرك أن ثمة رصاصة في بندقيته. فوجّه إلى صدرها وضغط على الزناد، فأصابت الرصاصة قلب

ابنتي فقتلت فوراً. وسال دمها الطري على الورود. لم تنبس ببنت شفة ولم تصرخ. بل أغمضتْ عينيها على الحلم وماتت. ثم فتحتْ عينيها ولم تغمضهما إلى الأبد. لقد دخلتْ تلك الرصاصة قلبي.

لقد كنت أنا القتيل الحقيقي. لقد قُتل الحلم الذي عشتُ من أجله. وعفوتُ عن الجاني لأن عينيها البريئتين أمرتاني بذلك. وعشتُ بعدها ثلاثين سنة ميتاً، ورزقت غيرها من الأطفال، فلم يشفِ أحد جرحي أو يملأ فراغها في قلبي وعقلي. اعتزلتُ الناس وقضيت حياتي ساهماً شارداً، وحين جاء ملاك الموت إلى سريري ضحكتُ وفرحتُ كثيراً. ولم يعرف أحد من حولي سبب نشوتي ثم جزاني الله بما صبرتُ وأعطاني أجمل أودية الجنة، حيث أقضي أيامي راتعاً بين الفراش، أمشي حافياً على الزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر. وهذه الفراشات هي أطفال الجنة.

ففي كل فراشة أجد رائحة ابنتي. إلا أنني ما زلت

أبحث مذ وطئتُ هذا الوادي، عن تلك الفراشة الذهبية التي طارت من يدي. إنها كل الفراشات وكل الألوان.

جدتي

كانت تنتظر قدومه، ذلك الزائر الغريب الذي يُسمى الموت.

وتقول لي: سأموت هذا الشتاء. وكان الموت يأتي في المساء ممتطياً صهوة الريح المطهمة. تعرف موكبه القادم من قرع الطبول ونحيب الأشجار. والريح تنشب أظفارها في لحم السنديانة العتيقة، التي يعشش في جذوعها طائر البرق. وكانت جدتي تسمع دوي الرعد، فتنفجر فيها شهوة الحياة، تماماً كما يُولد الفِطر.

في المرة الأولى، دخل الموت في ليلة ماطرة حجرتها المضاءة بالوهم. تخيلته زوجها الشيخ، ففتحت عينيها وقالت: كيف جئت يا أبا عثمان في شدة الليل المظلم. في هذه العاصفة الرهيبة. لم تخف

منه بل رفعتْ ذراعها لتداعب لحيته الشعثاء المضمّخة بالمسك وهي تتمتم:

لقد أوحشتني كثيراً. أنا لم أرك منذ عشرين عاماً. أين كنت مختفياً عني وكيف عدت من تلك الدنيا؟

ولكن الشبح أنشب يده القوية في عنقها الضعيفة. فتخيلته لصاً مارقاً وقالت بصوت مرتجف: خذ كل ما لدي من مالٍ ومتاع. فأنا لستُ إلا عجوزاً لا تغني ولا تسمن من جوع. خذ الخاتم الفضي من إصبعي. وخذ هذه التميمة المعلقة في عنقي. خذ إسوارة العرس. وهناك في الصندوق الخشبي، خمسون ليرة عثمانية، خذها أيضاً هدية لك. أرجوك لا تقتلني. عندئذٍ أخذ الملاك حليها ودراهمها ثم اختفى.

في المرة الثانية، قالت لي جدتي: سأموت هذا الشتاء. لقد هيأتُ كفني الأبيض. وخبأته في فرشة الصوف. قل لهم أن يحضروا ماءً ساخناً مثل الماء الذي كنت أوقده لجدك كل صباح في حمأة الثلج. وتنهدتْ وقالت: ما أجمل تلك الأيام. ثم حركتْ

شفتيها اليابستين وقالت: قل لهم أن يغسلوني بالزيت والصابون.

وإياك أن تدع الرجال والنساء الفضوليات يتفرجن على عورتي، عطّرني يا ولدي فأنا سألاقي جدّك الطيّب هناك.

وعندما هبت الريح وأغطش الليل، جاء ملك الموت بهيئة شيخ ملثم، لا يُرى إلا عيناه، وطرق باب حجرتها، فنهضتْ وهي تدبّ على يديها إلى أن لمستْ بهما المزلاج الحديدي وفتحتِ الباب.

وحين رأته أغمي عليها فوقعت على الأرض. وعندما أفاقتْ وجدته واقفاً محملقاً فيها، مكشراً عن أنيابه الصفراء، فقالت له بعد أن أغمضتْ عينيها: هناك في القبو خمّ صغير، وفيه ديك سمين ودجاجتان. خذ ديكي الوحيد واذبحه، والدجاجة البيضاء تبيض كل يوم. والدجاجة الحمراء ستعطيك صيصاناً جميلة. أرجوك لا تقتلني. فقام عنها مَلَك الموت ثم اختفى.

في المرة الثالثة، جاءها مَلَك الموت بهيئته المعهودة، في ليل مظلم عاصف كللته الثلوج البيضاء. فلم ترتعد جدتي ولم تخف. وعندما طرق بابها، نادته من داخل حجرتها: لقد ادخرتُ لك أكياس الطحين والبرغل والأرزّ في الغرفة الملاصقة. بابها الخشبي مكسور فادخلها وخذ ما تشاء لك ولأولادك. فحنى الملاك رأسه ومضى.

وفي المرة الرابعة، حضر إليها مَلَك الموت فعرفته، وهي التي تعرف كيف تدفع شرّه عنها. فقدمتْ إليه كأساً من الشاي دهاقاً وقالت له: ستكون حصتك «حرزانة» هذا الشتاء. عند جارتنا بقرة سمينة ستفديني بها. القبو مفتوح فاذهب وفكّ رسنها واسحبها وراءك، إنها طيعة كالنعجة. وهي تحلب في اليوم عشرة أرطال وستنتج لك ثيراناً قوية. فابتسم مَلَك الموت ثم اختفى.

وفي المرة الأخيرة، لم يبق عند جدتي شيء ترشو به ملك الموت.

وعندما جاءها لم يجد عندها شيئاً ينفعه. ولم ينفع

جدتي تضرعها وسجودها على قدميه. فقبض روحها بسهولة، كما تقتلع الريح شجرة يابسة هشة.

ورزقها الله في الجنة مكاناً عليّاً وقصراً من الذهب الخالص وفراشاً من حرير ووسادة من استبرق. ولكن جدتي لم تنسَ متعة الوضوء في الفجر إذ تقوم وتصلي. وها إنّ إبليس يحضر إليها كغلام أمرد طيع يحمل في يديه إبريق الكوثر. وهي تعامله بحنو مفرط، لأن وجهه يشبه وجه حفيدها البار في تلك الدنيا.

الحمار الضال

وجد إبليس في أحد المنعطفات حماراً ضالاً، فأوجس خيفة وقال:

ما أضلّ الحمير في الدنيا والآخرة. وسوّلتْ له نفسه أن يمتطي هذا الحمار النوراني المضيء. فوثب على ظهره فرحاً، وأخذ يعقر بطنه برجليه، تعبيراً عن شعوره الغامر بالفرح. وما لبث الحمار أن أكبّ على وجهه مسرعاً، لابطاً كل من يدنو منه. وكاد إبليس يهوي لولا أن شدّ وثاقه، حتى وصل إلى واد سحيق، يُدعى وادي الحمير.

أرضه أعشاب تحيط بها التلال والآكام، وإذا الحمير من كل شكل ولون. منها الجحش الرضيع والبغل البديع. والعجيب العجاب، أن حمير الجنة لا تنهق بل تتكلم كالإنسان، بل إنها تتقن لغة الضاد نثراً

ونظماً. وفيما إبليس يهدّئ من روع الحمار الضال، رفع صاحبه أذنيه عندما شاهد أتاناً، دعجاء العينين، ضامرة البطن، رمادية اللون، وبدأ ينشد بأعلى صوته:

سيدي مل بعناني نحو باب الأصفهاني

فلدى الباب أتان فضلت كل أتانِ

يتمتني يوم رحنا بثناياها الحسانِ

ولها خد أسيل مثل خد الشيفرانِ

ولذا مت ولو عشت إذاً طال هواني

وهكذا، لم تكن تلك الأتان سوى عشيقته في الدنيا. ولم يكن هذا العاشق إلا حمار صاحبنا بشار بن برد. فلم يبلغ شغفه بها، حبُّ جميل لبثينة، وهيام قيس بليلى. وهو ما ينفك يذرف دموعاً غالية عندما يذكر صاحبه بشار الذي لم يقدّر مشاعره حق التقدير. وقد فطن إبليس إلى هذه الحقيقة، ولذا همس في أذن الجحش الذي يمتطيه: لقد بدلك الله صاحباً خير من صاحبك، وأكثر تقديراً لحاجاتك ومشاعرك. فهز رأسه

شاكراً وقال: سأدلك على من هو خير مني منزلة في دنيا الحمير، وأعظم شأناً. فحمله حتى وصل إلى روضة بهيجة، يرتع فيها حمار جميل تحسبه ظبياً. ثم قال لراكبه: هذا هو الجحش الذي ركب عليه ابن مريم عندما دخل أورشليم، ليتمّ ما جاء في الكتاب. وكان إلى جانبه حمار آخر يخدمه ويرعاه.

وأوغل الحمار براكبه بعيداً في الأدغال حتى بلغ صخرة عظيمة، بنيت عليها سدّة من الشجر. فإذا هي منزل لأحد الأعيان الكبار في أمّة الحمير.

ودخل الحمار السدة وسلم على من فيها. فترجّل إبليس وحيّاه أيضاً.

ولفته ما خط في جبهته بأحرف من نور: أمير الشهداء...؟

وأمر السيد إبليس بالجلوس. وطفق يحدثه ظناً منه أنه من بني الإنسان.

أنتم البشر كنتم تسخرون منا في الدنيا، وتضربون بنا المثل في الغباوة. يقول أحدكم للآخر عندما يخطئ

أو يفشل: يا حمار. وكم من دموع سُكبتْ، ودماء سُفحتْ، والحمير منها براء. صحيح أنكم أوتيتم عقولاً وأجساماً قويمة، وسخّرنا الله لقضاء حاجاتكم ومنافعكم. ولكنكم لم تقدّروا عطية الله، وأنكرتم إحسانه إليكم، لأنكم لم تحسنوا معاملتنا. ولم تشفقوا علينا، واستكبرتم ساخرين من جنسنا الوضيع. وقد كنتُ في الدنيا حماراً عاقلاً، بل أعقل من كثير منكم. ذقتُ الخوف والجوع كما ذاقهما أطفالكم في الأرض المقدسة.

لم يكن يطيب لي علف ولا يروقني شراب أو منام وأنا أرى وأسمع ما يفعله الإنسان بأخيه الإنسان. وكثيراً ما كنتُ أردد في نفسي: طزّ بهؤلاء البشر. هم الحمير وليس نحن. إنهم لا يستحقون سوى أن نلبطهم أو ننهشهم إذا استطعنا. انتهازيون إلى أبعد الحدود، وكذابون ومجرمون، ولكنني كنت أقدّر حفنة صغيرة منهم، تدافع عن أرضها المغتصبة، وكرامتها المستباحة.

ولذلك تظاهرت بالغباوة بل تجاهلتُ حتى ظُنّ أنني جاهل، عندما وضعوا الديناميت في سرجي وفخخوني. إنهم أرادوني وسيلة سخيفة، من أجل غاية شريفة، وهي قتل المجرمين من اليهود. فتوجهتُ إلى الباص ورُزقتُ الشهادة. وقد بلغني أن الناس اختلفوا في أمري. فمنهم من قال: إنه شهيد عظيم، بل سيد شهداء الحمير.

ومنهم من قال: إنه إرهابي أصولي. ومنهم من تأسف وطلب لي المغفرة لأنني قتلتُ نفسي انتحاراً، ومنهم من ألقى اللائمة على من دفعني للموت. أمّا أنا فلم أحفل ببني البشر لأنهم أكثر مخلوقات الله جدلاً وسفسطة...

الملك الثور

امتطى إبليس عصاه ومضى. وعندما أدرك أجمة العرش وقف يحدّق إليها مليّاً. وحين همّ بالدخول صاح به الحارس شاهراً سيفه: قف مكانك وإلا قتلتك فوراً.

قال له إبليس، وهو يتأمل بانبهار ذلك السيف القزحي اللامع، هل تسمح لي بالدخول إلى هذه الأجمة أم تريد أن أقتحمها أنا وجندي الذين أحضرهم بإشارة مني. في هذه اللحظة شعر الحارس بقوة تخرج منه.

وأحس بيديه ترتعشان فخفض سيفه القزحي وخرّ ساجداً وقال:

خذه هدية مني إليك. وعندما تشهره بيديك ستخرّ

الوحوش ساجدة أمامك. طبتَ يا سيدي فادخل آمناً مباركاً.

تمتم إبليس: بسم الله، ودخل بقدمه اليمنى. فإذا به في غابة كثيفة ملتفة الأغصان. سقوفها عالية كالعروش.

استقبلته الثعالب وهرّت له الكلاب مرحبة بقدومه. فرحت به الفئران وخرجت الأفاعي من أوكارها وهي تمدّ ألسنتها الصغيرة الطرية. أما الأسود فقد مرّغت جباهها عند قدميه.

ومشى أمامه خروف صغير، فأخذ إبليس يداعب جلده الرطب، حتى أفضى إلى الملك الجالس في عرينه المصنوع من خشب الأرز، على هيئة سفينة لها رأس طاووس ومؤخرة ديك.

يا للمفاجأة لم يكن الملك ليثاً، بل جاموساً ضخماً، ذا جلد أسود تزينه بعض الثغر الحمراء.

حرك الجاموس قرنيه ففهم إبليس أنه أذن له

بالقعود. فقعد صامتاً حائراً. إذ للمرة الأولى يجد أن ملك الحيوان هو ثور وليس أسداً هصوراً.

فحرّك الجاموس الملك قرنيه شاكراً. وفهم إبليس أنها إشارة الانصراف. وانصرف في موكب تحفّ به الحيوانات من كل جنس ونوع. ولدى الباب وجد الحارس في انتظاره. ولكن إبليس العازم على كنه أسرار الجنة ومعرفة خفاياها، وجد الظرف ملائماً لدعوة هذا الجنّي المارد إلى مائدة الغداء. فتبعه كما تتبع الشاة النعجة.

وبعد أن فرغا من الطعام، أمر له إبليس بالشراب اللذيذ فاسترخى ونام. وعندما أفاق من سكرته. سأله بانشغاف: ما قصة هذا الملك الجاموس؟

فأجاب الحارس:

كنتُ في الدنيا خفيف الظل أحب التجوال كثيراً. واتفق أن قمت بجولة في الصحراء، حتى بلغت أجمة عظيمة عند فم الأنهار. ورأيت جاموساً ضخماً أسود اللون يرِدُ البحيرة شارباً. وكان يتربص بالقرب منها

قطيع من الأُسُود الضارية الجائعة. وحين أحسّت برائحة الثور السمين تلمّظت واستعدت لافتراسه. وفيما كان يشرب انغرزتْ قوائمه في الوحل ولم يستطع الهروب بعد ارتوائه وإحساسه بدنو الأُسُود منه.

وأخذت أراقب ما يجري وأنا واقف خلف الشجرة. كشّرت الأسُود عن أنيابها وهجمتْ بأصواتها المزمجرة المتعطشة إلى اللحم والدم، إنه صيد سمين مكين.

وثب أسد على ظهره غارزاً أنيابه في جلده السميك. ووثب آخر على مؤخرته. وحاول ثالث الوثوب على رأسه من يمينه، فوكزه بقرنه. وأما الرابع فقفز عن شماله فدفعه بقرنه الآخر. فيما كانت الأُسُود الأخرى تمعن في لحمه تمزيقاً وتقطيعاً. ورأيتُ الدم الأحمر القاني ينفجر من أعلى ظهره، وأنياب الأسود تلغ فيه حتى امتزج ماء البحيرة بدمه النازف الصارخ.

حاول الثور الدفاع عن نفسه بكل ما أوتي من قوة. وحاول التصدي للأُسُود بقرنيه الجبّارين. وصمد

حتى الرمق الأخير. لم يكن يحس باللحم المقطع والجلد الممزّق. لم يكن يحس بالأنياب التي تنهشه بشراهة وشراسة. كانت غريزة البقاء في دمه أقوى من عضة الألم.

وعندما استنفد طاقته في القتال، وقوته في الدفاع، خرّ ساقطاً على بطنه والدم ينزف منه. والأُسُود تمعن فيه تمزيقاً وتقطيعاً. عندئذٍ شعر بكل ما في العالم من ألم وقسوة. ثم أطلق زفرته الأخيرة بل خواره الأخير بصوت ضعيف مذبوح...

وهنا توقف الحارس عن الكلام وعضّ شفتيه. ثم قال: لقد شعرتُ بالألم كثيراً ولكنني بالتأكيد لم أشعر بسكرة الألم التي أحس بها الثور المسكين.

وانطلقتُ في الصحراء لا ألوي على شيء. ورفعتُ رأسي مرات إلى السماء صارخاً، ألا تشعرين أيتها السماء بما يجري من ظلم في الأرض.

أيتها السماء البليدة الظالمة. هل يتلذذ الرب بمنظر

الوحوش المفترسة. ألا يسمع أنين النفوس الضعيفة المتألمة؟

هل كان ذاك الثور ينزو أم كان يتألم في بطء، وتخرج روحه من بدنه كما ينهش لحمه قطعة قطعة؟

هل كان ذلك الثور ينزو على بقرة كما لو أن إنسيّاً أو جنيّاً يضاجع امرأته أو ينعظ وهو نائم؟!.

كلا. كنتُ أصرخ كالمجنون يا إبليس وأنتف شعري احتجاجاً ضد السماء.

وهنا أمسك إبليس بيديه وقال له: هل تبلس من رحمة ربك أيها الجنيّ؟ فمسح الحارس دموعه بثيابه. وقال إن الله استجاب دعاء المظلوم وسمع أنينه وبكاءه. وأراد إنصافه وتكريمه. فجعل ذلك الثور القتيل ملكاً على وحوش الجنّة.

الأبله

كانوا في الدنيا يسمونه «المجنون». ولكنه لم يكن مجنوناً كاملاً. كان نصفه مجنوناً، والنصف الآخر إلهاً منبوذاً.

كان يعيش في الظل. وفي الوقت الذي تحترق عقول الناس بأشعة الشمس، كان عقله صغيراً كدبّوس في كومة من القش. وكان قلبه أوسع من عقله.

كان عقله ثقباً صغيراً، جُحراً لفئران البيت. وأما قلبه فنهر دافق من الحب، تطفو على وجهه جثث الأفكار الميتة.

ذلك هو مجنون القرية. لقد أوتي حظاً عظيماً في الجنة. بل أوتي شجرة العقول في الجنة. وهي الشجرة التي عُلّقت عليها عقول الفلاسفة والحكماء في كؤوس مضيئة يرشح منها الزعفران.

وأما عقل «المجنون» فقد تحوّل إلى بلبل صغير يصدح في أعلى الشجرة. وعندما هبّت ريح الرحمة من أعالي الفردوس، وجد إبليس رائحة العقول العفنة. ثم هبّت ريح المغفرة، فوجد عطر الأرواح الزكية، وأريج الزفرات المعقّمة، فأتى الشجرة ليلاً، إذ رأى من بعيد نجوماً مضيئة على أفنانها. فصاح به الحارس قف مكانك. لا تلمسها، إياك أن تلمسها فتشقى!

وهنا حدّق إبليس إلى وجه الرجل، ثم ابتسم وقال: أنت أبله القرية. لقد أوتيتَ منزلة رفيعة أيها الشقي. لقد أصبحتَ حارساً للنجوم المضيئة. فأجابه الأبله: هذه ليست نجوماً، بل عقول حية وضعت في كؤوس من الزعفران. فضحك إبليس ساخراً وقال: أليس هناك من هو أجدر منك بحراسة العقول، وأنت الذي أُزهق عقله من قبل.

فأجاب الحارس: كنتم تسمونني الأبله في الدنيا. وكنت أضحك في سرّي عندما تستهزئون بي. وفي حقيقة الأمر كنت أضحك منكم.

فقد كان عقلي أشبه بعصفور غريب عن حقولكم. وكنت أخشى أن أريكم إياه حتى لا تقتلوه غيرة أو حسداً. كان عقلي عصفوراً يختبئ في أعماقي، ويزقزق للمجانين الذين فاضت عقولهم عن حاجتكم.

ذلك أن الإناء لا يتسع لمياه البحر، فيحسب أن البحر لا يملأ جوفه.

لقد كانت عقول الناس أوعية ضيقة مقفلة، وكان عقلي إناءً مثقوباً.

أجل، كان رأسي مثل ميزاب من المعرفة ولكنكم رفضتم أن تملأوا أقداحكم وتشربوا منه.

في هذه اللحظة، صرخ إبليس وقال: لقد كنتَ تخدعنا إذن، وما جزاء الخادع الملعون إلا أن يُصلَب على جذع هذه الشجرة.

عندئذٍ، اقترب منه الأبله وربّت كتفيه وقال: أعذرك أيها الجاهل الحسود، وهل تريد أن تعترض على حكم الله. لقد أنصفني قاضي السماء، إذ كان وجودي بينكم إدانة لجميع قضاة الأرض.

لم أقتل ولم أسرق ولم أزنِ. إنني لم أؤذ أصغر حشرة. لقد كنت أعيش في الظل. وها أنا ما زلت أعيش في ظل الله.

وعندما شعر إبليس، أن هذا الأبله أكثر علماً منه. دنا وقال: إنني أعتذر عن غباوتي. ولكن هل لي أن أسألك لماذا عُلّقتْ هذه العقول النيّرة على هذه الشجرة العظيمة.

فنظر الأبله إلى أعلى الشجرة، ثم حدّق إلى وجه إبليس وقال: إن هذه العقول كانت سبب الشقاء في الدنيا. وإن الناس لن تسعد في الجنة وتتذوق نعيمها، ما لم تُقبض عقولها وتُحبسَ في هذه الكؤوس، وتُطلقَ أرواحها كطيور في سماء الفردوس!

الشاعر

في اليوم الثامن من أيام نزهته في ظلال الفردوس، فوجئ إبليس برجلٍ نحيف القامة، أشعث الشعر، غائر العينين، أسمر السُحنة، أبيض الصدغين. تشتعل فوضى الشيب في لحيته. والحقيقة أن الفوضى شيء من سجيته، فهو ما ينفكّ يمسك الأغصان ويجرّدها من أوراقها، وتمتد يده إلى الزهور منتّفاً براعمها. فتارةً يكسر الأغصان، ويركل الجذوع بقدميه تارة أخرى.

فصرخ به إبليس: كفى عبثاً أيها الرجل الشرّير. هل تريد أن تعيثَ فساداً في الجنة وتقتل سحرها ونضارتها. ألقِ فأسك جانباً أيها المجنون. أيها الجاحد نعمة ربك وفضله ورضوانه. فأجاب الرجل بصوت متهدّج كأنه الشلال الهادر في ذلك الوادي: أنا لستُ

مجنوناً ولا جاحداً ولم أكُ قاتلاً شريراً. كان الأجدر بك أن تسميني شاعراً من أولئك الذين يتبعهم الغاوون. إلّا أن الغواة ليسوا هنا. وعسى أن تكون أنت الغاوي الوحيد الذي سيتبعني. وهنا هدأ روع إبليس وأدرك أن من وراء أفعال هذا الرجل الغريب حكمة ما. فقال له: لماذا تجرد الأغصان من أوراقها ثم تكسرها؟ ولماذا تنتّف الزهور وتقتل أجنّة العطر في أكمامها؟ فقال الشاعر: لا تلمني يا صاح، فأنا أكثر كائنات الجنة إحساساً بالضجر واليأس. إنك تحسبني مفسداً، لأنني أهوي على الأشجار بفأسي. إنني في الحقيقة أقطع أغصان روحي اليابسة وأعلن احتجاجي ضد هذا الربيع الدائم. ضد هذا النعيم الدائم.

إيه إبليس. أنتَ تفهم جيداً ما أريد أن أقول لك، وتحس بعمق بما أشعر، لأنك ستشعر مثلي بالضجر قريباً... إن أكبر جريمة ترتكب بحق أحاسيسك هي أن تشبعها. إنّ العطش إلى الماء أفضل من الري الدائم. وإنّ الشوق إلى الوصال أمتع وأعذب من الوصال

المستمر. إن قيمة اللذات في تجددها، وروعة الفصول في تبدلها. إن الجنة الدائمة جحيم آخر. والربيع الدائم وحشة متراكمة.

لقد اشتاقت روحي إلى الخريف. عشتُ في الأرض ثلاثين خريفاً. وفي كل عام كنت أنتظر عودته لأراقب الطيور الراحلة والأوراق التي تبعثرها الرياح كأحلامي المبعثرة الشريدة. كنتُ أهتزّ لوقع المطر الأول على الأرض العطشى. كنتُ أنتظر الرعود التي تفجّر وحشة الأعماق وتفجّر في آنٍ إحساسي الرائع بالشيخوخة.

كنتُ أرجو أن تبكي السماء لأخرجَ عارياً تحت المطر. آه ما أجمل أن تعرى لتغسل صدأ الروح، وتدغدغ ما تبقى من حياةٍ فيك.

إيه إبليس. إحملْ فأسك واتبعني. لنصنع خريفنا الجميل. لا قيمة لجنة لا تسقط فيها الأوراق، ولا سحر للزهور التي لا يعروها الشحوب.

إن الحنين يعصف في نفسي إلى ذلك الخريف

الذي فقدته. إلى رائحة المطر ورائحة الأرض. إلى ذلك الطفل الذي كنت أمسك بيديه وأقوده إلى مدرسته الأولى. إلى رائحة الكتب الجديدة والمراويل التي تزدحم في الشوارع والأبواب. إلى المقاعد الخشبية الفارغة تحت الأشجار الباسقة في الجامعة. التي تنتظر عاشقاً أتى، ومعشوقةً لم تأتِ.

اشتقتُ إلى الدنيا. إلى خريفها العابث الماجن. وشتائها الرائع الجنون.

الراعي

وتابع إبليس رحلته الغريبة فوجد على ضفة نهر الحياة، شاباً وسيماً، يرتدي جبّة ممزقة، يخرج من أكمامها عشب أخضر. وتضيء في ثنايا قميصه الوردي أزرار مضمومة كالبراعم، متلألئة كنجوم العشي. سأله: من أنت ايها الفتى الغريب. فأجاب وهو يداعب ثقوب الناي: أنا الراعي العاشق، قدمتُ لله قرباناً من الحليب الطازج والقشدة والعسل. وقدم أخي قرباناً آخر سلة ملأى بالحنطة والشعير. فالتهمتها النيران المقدسة. وكان من ورائنا امرأة جميلة، ورهان أن من يتقبل الله قربانه يتزوجها. وعندما ربحتُ الرهان، التهمتِ النيران من جديد صدر أخي وقلبه ويديه. فانهال بعصاه الغليظة على ظهري، ثم أخذ من الأرض حجراً مدبباً قذف به رأسي فقتلني على الفور.

وظلّت جثتي الطازجة تصرخ في العراء. وجاء الغراب وحام حول رأسي يستسقي المطر المغيث. وهكذا متّ شهيداً في العشق، ورزقني الله هذه الناحية من الجنة. فأنا كل صباح وأصيل، أجلس على هذه الضفة الزرقاء أداعب بحنو ثقوب الناي، وأنفخ فيه فتخرج روحي من مفاصل السماء، وزبد الأنهار وعروق الأشجار. وتعود إليّ فتنسرب من رؤوس أصابعي في أطراف جسدي كله.

وعلى الضفة المقابلة، آنس إبليس وجه رجل يشبه الراعي القتيل، فعرف أنه القاتل العاشق. ما زال فلاحاً بسيطاً ينظر إلى أشجار بستانه كأنما ينظر إلى أولاده، أو إلى سرب من النساء الجواري.

فسأله إبليس: لماذا قتلتَ أخاك؟ فأجاب قتلتُه دفاعاً عن نفسي، أو هكذا خُيّل إليّ. قتلته غيرة وحسداً وغيظاً، قتلته طمعاً في امرأة جميلة. قتلته لأكون شهادة صارخة على ظلم الحياة الدنيا وجنونها. فالإله العادل أراد أن يختبر الطين الذي جبله بيديه.

ولكنني اكتشفت أن الحجر الذي شدختُ به رأسه قد ارتدّ إلى قلبي. إن عذاب القاتل أشد هولاً من حشرجة القتيل. فالضحية قد تتألم ساعة، ولكنّ عذاب الندم والحسرة لازمني إلى قيام الساعة.

أجل، قتلتُ أخي يا إبليس إرضاءً لآلهة الدم التي تسكر برائحة الشواء. الآلهة التي رقصتْ وغنّتْ وشربتِ الخمر في احتفال عظيم. أما أنا فقد فار الدم في عروقي، وصعد الدخان إلى رأسي، ومشيتُ مكبّاً على وجهي في الصحراء. لا ألتفتُ لا يمنة ولا يسرة، ولا أسمع إلا قهقهة خبيثة تتردد في زوايا السماء.

وفي اليوم المشهود، سألني الله برفق لماذا قتلتَ أخاك يا بُنيّ؟

فتلعثمتُ ولم أتكلم وخفضتُ رأسي أمام نور جلاله. فأمر الملائكة أن تصفح عني، وتدلني إلى مكاني في الجنة. ذلك أن محبة الأب العظيم تهزأ بأحقاد الأطفال.

الأرملة

تحت زخّ المطر، حملوا النعش إلى المقبرة، كان الفتى يمشي في الجموع مطرقاً. فوجئ بورقة النعي معلقة على جدران الشوارع. قيل إن الفقيد مات بغتة. بسبب عطل طارئ، فالإنسان أقل حظاً من سيارة أوتوماتيكية. وفي زحمة المناكب، مد الفتى يديه إلى النعش الأحدب. إذ كان يدرك أنها اللمسة الأخيرة. وعند رجوعه من التشييع، كان ثمة عطر غريب يصعد من غبار قدميه.

لقد كان الخبر مدهشاً، مثلما كان مؤسفاً، وبين الدهشة والأسف، يُولد الإنسان ويموت.

إن دفن الموتى عمل عادي. يشبه زراعة وردة أو حصاد سنبلة في أوانها. وحده ذلك الفتى كان يدرك

معنى أن يحصد الموت روحاً لم تشبع من الحياة. كل الناس يموتون. فالموت إذن أمر سخيف، ولكنّ موت الشعراء، قد يكون عملاً إبداعياً عندئذٍ يصبح الموت أمراً عظيماً مميزاً.

شاهد الفتى وهو يرجع من المقبرة، غراباً يرفرف حول وجهه مستسقياً. غراباً ظامئاً. تُرى هل مات الرجل وروحه ظامئة إلى الحب؟

أطلقتِ امرأته الواقفة على الشرفة، صرختها الأخيرة، ولمرة أخيرة. تُرى هل كانت صرخة الوداع والفقدان، أم كانت صرخة الحرية. ولا عجب في ذلك، فموكب جنازته أصبح فيما بعد عرس الحرية.

لقد امتزجت في مشاعرها غصة الفقد ولوعة الفرح. شعور متناقض ولذيذ في آن. وطبعاً لم يكن الناس يعرفون شيئاً عن حياتهما غير المشتركة. وكثيراً ما سألت نفسها: هل قدرُها أن يكون زواجها فاشلاً منذ ليلة الزفاف الأولى. تلك الليلة التي فقدت فيها

عذرية الجسد، ولم تفقد عذرية الروح. ولا غرو ففي مجتمعها تكفي خرقة قماش بيضاء لإثبات طهارة امرأة.

القهوة التي اندلقتْ على فستانها الأبيض، لم تزل مُرّة المذاق. يا للهول، إنه رجل مستبد وعصبي المزاج، لم تكن تفقه ذلك، فقد اختارته زوجاً جاهزاً. ولسبب آخر أكثر خصوصية، فقد أحبّتْ أن تغيظ زميلاتها وربما إغاظة رجل لم تبح باسمه لأحد.

وولدت الأولاد لتمارس أمومتها، ولتملأ الفراغ الذي لا يمتلئ إلا بالحب. حاولت أن تنسى أن تفرّ من الواقع، أن تهرب إلى عالم آخر. لم تكن جريئة جداً لتقاوم وترفض وتتمرد، كانت القيود أكبر منها فلم تخلع القيد من قدميها.

قبل وفاته بقليل، أحسّتْ بدنو أجله. بحاستها السادسة تدرك ذلك، ونبت الحلم الذي أحرق أهدابها من قبل، ترى هل يهبط صحن طائر من فضاء بعيد فيخطفها الرجل الأخضر ويحلّق بعيداً بعيداً...

وبعد انقضاء الشتاء الطويل، أطلّ الربيع الجميل على تلك القرية الوادعة. وذلك البيت الحزين الموحش. فالأرملة تحصي أيامها الباقية، وتخيط ذاكرتها الممزقة بإبرة النسيان. لم تزل في الكأس بقية. وفي الروح أشواق عتيقة، وأحلام معتّقة. لم يزل ثديها طازجاً، وجسدها صالحاً للحب. قالت في سرها: أنا امرأة بكل ما في الكلمة من عذوبة وقسوة.

لقد آن الأوان لتمارس حريتها لتحب وتُحبّ. آن الأوان لتثأر من ماضيها البائس، وأيامها التافهة الفارغة. لقد خرج مارد الأنوثة من قمقمه ولن يعود إليه.

فكرتْ قليلاً، واشتهت كثيراً النار تحرقها من أطرافها، واللهب ينضج روحها على مهل. صاحت في ليلها الموحش: لقد وجدته، لقد وجدته، يا للصدفة لم يكن غير ذاك الفتى الذي مشى في جنازة زوجها، وعاد من هناك وقد علق في ذاكرته شيء من غبار حذائه.

وعندما زارها الفتى الجميل معزّياً، دعته بحرص إلى عشائها السرّي. فكان جسدها الطازج الملتهب وليمة العشاء الشهية. وليمة الغدر والثأر. وعندما عاد الفتى من سريرها الحميم إلى بيته، سمع وهو يخرج من الباب قهقهة عالية بعيدة. كانت النجوم تسبح في مدارها العاشق هاتفة: طوبى لك أيها العاشق الفاتح.

أما المرأة فقد ظلت مستلقية على ظهرها في السرير، الذي تحوّل إلى بحيرة عطر، رافعة ساقيها إلى السماء، علامة الشكر والامتنان. فللمرة الأولى تشعر بأنها فقدت عذريتها دون أن تسيل الدماء منها دحماً دحماً.

وهكذا أصبحت في نظر الشريعة امرأة آثمة. ولكنّ المشيئة غلبت الشريعة. وسبقت كلمة ربك يوم العدل، فدخلت المرأة الجنة عروساً عذراء. وحين دخل عليها زوجها القديم أنكرته، وولتْ مدبرة ولم تعقّب. فحاول إبليس إصلاح ذات البين. وعلى الرغم من كل مساعيه

الودية، ورسائله الوردية، ولباقته الدبلوماسية، رفضتْ أن تعود إلى بعلها. وآثرت ترك الجنة.

وهنا أدرك إبليس أن جنة الإنسان في روحه لا في السماء، فدمعت عيناه، ووقعتا على حمامة بيضاء، تندب إلفها على غصن أخضر، يعلو حيناً ويمسّ الأرض أحياناً.

مع أبي العلاء

ونظر إبليس في رياض الجنة فرأى شيخاً كبيراً، ضُربت له قبة خضراء، يتجمع حوله نفر من الناس. فإذا به صاحب رسالة الغفران وإلى يمينه صاحبه الذي سبقه إلى الجنة من قبل، ابن القارح، شفى الله كبده المقروحة من شرب الخمر. وكان الشيخ يترنح من النشوة ويعاقر نداماه من الشعراء المغفور لهم. فسأله إبليس كيف تبوّأت هذه المنزلة وأنت لم تكتب رسالتك تلك إلّا تهكّماً بالجنة وأهليها، وهزءاً بما وعدك ربك فيها. فيمسح أبو العلاء لحيته ويقول: لقد بقي في قلبي ذرة من إيمان، فغفر لي. وقد كان حظي في الدنيا تعيساً، إذ كنتُ أعمى، فأراني الله عظمة نوره، وفضل نعمته، ورزقني من الحور العين سبعين

امرأةً وجارية. وما تلك الجارية يا شيخ الشعراء؟ فيجيب إنها تلك التي حملت ابن القارح من قبل على الصراط زقفونه. مخافة أن يهوي في الدرك الأسفل من النار. فيقول إبليس وما زقفونه؟ فيضحك أبو العلاء ويردد ضاحكاً:

ســــتِّ إن أعـــيـــاكِ أمـــري
فــاحــمــلــيــنــي زَقــفــونــه

وكيف دخلتَ أنتَ إلى الجنّة يا أبا العلاء؟ لقد دخلتُ مقرفصاً ويداي مرفوعتان إلى أعلى. فمدّت إليّ الجارية يديها وجذبتني جذبة وقعتُ منها على عشب الجنة كطابة من زئبق.

قال إبليس، حدثني، يرحمك الله، عما يدور في نفسك اليوم يا رهين المحبسين؟. وقد أبدلك الله بالثلاثة من سجونك قصراً منيفاً وروضة وريفة. ظلها يمتد مسيرة ألف عام.

قال أبو العلاء، والذي نفسي بيده، إن الجنة

لسجن كبير، وماءها الفضي لا يغيثني ولا يروي قلبي. حبذا ذاك الماء في الدار العاجلة. واغرورقت عيناه بالدموع وأنشد:

ويا برق من ماء المعرّة قطرة
تغيث بها ظمآن ليس بسالِ

ثم حمد الله وقال: أفدي بنعيم الجنة قطرة من ماء المعرّة. لقد حرمني الله منه لأنه يُفسد قريحتي.

فانتصب إبليس إزاءه وقال: ومن هي، أدام الله ظلك، أم عمرو تلك التي خاطبتها قائلاً:

أتترك ههنا الصهباء نقداً
لما وعدوك من لبنٍ وخمرٍ

حياة ثم موت ثم حشر
حديث خرافة يا أم عمروٍ

فيجيبه الشيخ: هذه امرأة اخترعها الشعراء في الفانية، وقد ذهب بها الحمار ولم تعدْ رحم الله القائل:

إذا ذهـب الـحـمـار بـأم عـمـرو
فـلا رجـعـتْ ولا رجـع الـحـمـارُ

وقد لحقت بها صاحبتُها الملعونة أمُّ دفر. فلا أعادهما اللَّه.

فبلع إبليس ريقه وسأل: وكيف تسوّغ قولك في عيسى:

عـجـبـاً لـلـمـسـيـح بـيـن أنـاسٍ
وإلـى غـيـر والـدٍ نـسـبـوهُ

أسـلـمـتـه إلـى الـيـهـود الـنـصـارى
وأقـروا بـأنـهـم صـلـبـوهُ

وإذا كان ما يقولون في عيسى صحيحاً فأين كان أبوهُ؟

فأجاب، زاد الله علمه، أما جاء في الإنجيل أن عيسى صرخ وهو معلق على الصليب، أبي أبي لماذا تركتني؟ كيف يدعه أبوه يُضام، ويستسلم للإعدام؟

فحاججه إبليس قائلاً: ولكنّ النصارى يا سيدي،

يقولون، إنه بُعث مخلّصاً وفادياً. لقد أرسل الله ابنه حسب زعمهم، ليفدي الناس ويخلّصهم من الخطيئة. فلم يكن الصلب ضعفاً، ولا ذُلاً. بل حكمة مقصودة، وغاية محمودة. وهل نسيت أنه قام من بين الأموات؟

فأجابه أبو العلاء: إن الله قادر على تطهير الناس من خطيئتهم دون أن يُسلم رسوله للقتل. ويجعل من صلبه شبهة يختلف فيها الناس. وتحار فيها الأنفاس. وما كان أغنانا عن تلك المأساة: فلكل قوم أسطورة، ولكل قوم جلجلة.

فسأل إبليس: وكيف تنكر نسبه لوالده؟ أليس سهلاً على الرحمن الذي اتخذ إبراهيم خليلاً، وموسى كليماً، أن يتخذ عيسى ولداً؟

فأجابه الشيخ الوقور: كلنا أبناء الله وأحبّاؤه. كلنا عيال الله. وأحبهم إليه أنفعهم لعياله. ولكن الغلوّ أهلك الناس. وتلك سنّة أتباع الأديان.

وقبل أن يغادر إبليس المكان، قال للشيخ، هاك

سؤالي الأخير: لماذا اعتبرتَ ركن الكعبة وثناً من الأوثان وبقية من الأنصاب؟

فمسّد الشيخ لحيته وقال: يا سبحان الله، أعلم أنه حجر لا ينفع ولا يضر، وما زلت أجهل حتى الآن، الحكمة من تقبيله والطواف حوله.

فضحك إبليس وقال: أما زال في النفس حاجة يا أبا العلاء. عفا الله عني وعنك، وبدّل سيئاتنا حسنات. غفرانك اللَّهم. أنت الغفور الرحيم.

إبليس والخضر

وجد إبليس قرب عين الحياة شيخاً يعتمر قلنسوة سوداء، ويرتدي جبة خضراء، ويمسّد بيده اليمنى لحيته البيضاء، ويحمل بيده اليسرى خرقة حمراء، كلما لوّح بها أخذَ مَن حوله من المريدين الحال. فتحسبهم سكارى وما هم بسكارى. وكان من ورائه صبيّان وملك وفتى. وكان الصبيّان يحملان كنزاً منقوشاً عليه «لا إله إلا الله»، وكان الملك يلقي في الماء سفينة مثقوبة على هيئة أيقونة صغيرة. وأما الفتى فكان يرفع رأسه مزهواً بقلادة من الماس تحيط بعنقه. فعرف إبليس أن هذا الشيخ هو صاحب موسى، وإن الصبيين هما اليتيمان اللذان أقام لهما جدارهما الذي كان تحته كنز لهما، وإن الملك هو ذلك الذي كان

يأخذ كل سفينة غصباً. والسفينة المثقوبة هي تلك التي خرقها الخضر كي لا يصادرها الملك من أصحابها المساكين. وما القلادة المشعة في عنق الفتى إلا زيح السكين التي ذبح بها.

وتقدم إبليس ليحاجّ الخضر على ما ارتكب من أفعال، في حضرة هؤلاء الشهداء، زاعماً أنه أوتي علماً أكثر من علمه، وحجّة أبلغ من حجته.

إبليس: لقد أحسنتَ صنعاً أيها الخضر عندما أقمتَ الجدار الذي يريد أن ينقض. إذ حفظتَ لليتيمين كنزهما. ولم يكن الكنز إلا حفنة من الذهب الكريم. ولكن الكنز الحقيقي هو المعرفة المحجوبة تحت جدار الوعي في نفسك. فهل كنت تملك هذا الكنز وهل أعطيتَ موسى شيئاً منه. ولم يكن تأويلك لبعض ما فعلتَ مقنعاً. فقد ذهب خير ذا بشرّ ذا.

الخضر: ماذا تقصد أيها الدعيّ المغرور. وليس

كثيراً على من جادل الله في أمره، أن يجادل عبده في فعله.

إبليس: لقد فعلتَ بعض الأشياء المنكرة في الظاهر، وكان تأويلك لباطن ما فعلت أشدّ نكراً. ولو كان تلميذك فطناً لاستنكر استنكاراً، وأبى أن تهجره استكباراً.

الخضر: ويحك ما هو المنكر الذي فعلت، حتى أبيت عليّ هذا واستنكرت.

إبليس: إنك تزعم أنك خرقتَ السفينة لتعيبها. ولو خرقتها من جهة الماء لغرقتْ. وهذا الخرق لا يُعدُّ في عرف التجّار عيباً. لأنه لا يعيق إبحارها، ولا يشوّه منظرها تشويهاً بالغاً. فالعيب عيبك ولم يكن عيب السفينة. وهل كان الملك ساذجاً فيُخدع بحيلتك الصغيرة، والسفينة ما زالت صالحة للركوب، جديرة بالنفع؟

الخضر: لم يكن الملك يرجو المنفعة فحسب،

بل الزينة والتباهي. وهذا دأب الأغنياء المترفين، والملوك المستكبرين.

إبليس: إنني وجدتُ الأغنياء أحرص على المال من الفقراء، والملوكَ أطمع في النفع من العبيد. وما كان حب الزينة والتباهي ليمنع الملك من رتق السفينة، فترجع درّة ثمينة.

الخضر: لم يكن ما فعلته عن أمري. والله كفيل بأن يعمي بصر الملك وبصيرته، حفظاً لرزق المساكين الطيبين.

إبليس: وكيف قتلت فتىً بريئاً، وزعمتَ أنه سيرهق أبويه طغياناً وكفراً.

الخضر: لقد أعلمني الله أنه سيكون كافراً، وسيرهق أبويه...

إبليس: وهل هذا سبب مشروع للقتل وسفك الدماء؟ لمجرد خشيتك من أن يُلحق الفتى بأبويه الضرر والإيذاء؟

الخضر: هذه شريعة الباطن وليست شريعة الظاهر.

إبليس: أنت تفسر الباطن بالظاهر. وينبغي أن يكون تفسيرك موافقاً للعقل. وأي شريعة هذه التي تبرّر قتل الفتى الصالح لأبيه الطالح.

ولِمَ لا تبيح للأب الصالح أن يقتل ابنه الطالح. فالخشية من الآباء على الأبناء، أكثر من خشية الأبناء على الآباء.

الخضر: إن ما فعلته كان استثناءً من التشريع، لا يصلح في كل مكان وزمان.

إبليس: لقد أوتيتَ امتيازاً خاصاً إذن.

الخضرة: وما فعلته عن أمري.

إبليس: إنك تجهل الحكمة مما فعلت.

الخضر: هل تريد أن تقدّم بين يديّ الله؟

إبليس: أستغفر الله. ولولا تواضعك الجم لما فزتَ بالنعيم. ولولا التسليم، لما عدتَ إلى ربك بقلب سليم.

الخضر: لقد صدقت. ولولا عفو الله عنك لما دخلتَ الجنة.

وهنا تقدم الثلاثة الشهداء، وقالوا لإبليس: كنا للناس فتنة واختباراً، ودخلنا الجنّة أبراراً، وشربنا من عين الحياة التي فُجّرتْ أنهاراً، وتحسبنا سكارى وما نحن بسكارى.

جنة الغلمان

وصادف إبليس أبا نواس في جماعة من صحبه، يهذي ويضحك، فبادره مازحاً:

يـا نـواسـيّ تـوقّـرْ وتـعـزّ وتـصـبّـرْ

وقال هل أدلك على جنة الغلمان، وغابة الألحان، وروضة النسيان. فقال هلمّ، فانطلقا في منعطف ضيق الفم كأنه وادي الرسّ، طويل العنق كأعناق المطي، فصادفا حمامة بيضاء على فنن، فقال إبليس لصاحبه أتدري ما هذه؟ هي أكبر حمام الجنة وأجملهن، إنها جارة صاحبنا أبي فراس الحمداني، وقد حال الله بينهما، ليطيب سجعها ويزداد حلاوة، ثم صادفا ناقة ترغي، فقال أتدري ما هذه؟ قال لا، فقال هي رازحة صاحبنا المتنبي، للّه ما أحلى بغامها،

وأشهى رغاءها، وسل عنها، إذا شئت ذا المحبسين يخبرك ما تتلو من زبور الحنين، ثم صادفا طيراً أسود الريش لامعه، فقال أتدري ما هذا قال لا، قال هذا غراب البين، كم ذمه الشعراء وجنى عليه العشاق، ولولاه ما ذاق قلب لذة الفراق، وما عرفت مهجة نشوة العناق، فللّه درّه من طير، ولله ما في سواده من خير.

وحين وصلا وجد النواسي سبعاً من الحانات فقال إبليس هل أدلك على أسمائها قال بلى، قال هذه حانة الوعد، وهذه حانة الوجد، وهذه حانة السهد، وهذه حانة البعد، وهذه حانة الفقد، وهذه حانة السعد، وتلك حانة الرشد. وهذه الحانات قد أعطيتها. لقد تجاوز الله عنك بعد أن قلت:

يا ربّ إن عظمت ذنوبي كثرة،
فلقد علمت بأن عفوك أعظمُ

إن كان لا يرجوك إلا محسن
فبمن يلوذ ويستجير المجرمُ

أدعـوك رب كـمـا أمـرت تـضـرعـاً
فـإذا رددت يـدي فـمـن ذا يـرحـمُ

ثم وجد في استقباله سبعين غلاماً من كل أغيد ساجي الطرف مياس، فصاح وابشراه سبعين مرة ومرة، وعند أقدام الغلمان نهران يمتزجان.

فاطّرح النواسي عمامته وقال لإبليس كأسك وأنشد:

يا راكب الذنب قد شابت مفارقه
أمـا تـخـاف مـن الأيـام عـقـبـاهـا؟

وأردف: نعم العقبى ورب الخمرة.

ونادى صاحبه، أرى نفسي كأنني الآن في بغداد، كأن الحان حانها، والأهل أهلها، والليل ليلها، وكأن هذين الفراتان، فمن يعيد إلي ذاك الزمان، وأين مني مجلس الندمان؟. فأجابه إبليس، سيجيء فتيتك ورهطك، فاشرب الصفراء وانسَ الأحزان، واللائم الحرج. هل كنت تحسب أنكَ ستحظى بكل هذا ولكن

ربك يعلم أنك لم تشبع من المعاصي وإن زعمت أنك شبعت.

ولكن إبليس قال في نفسه: ترى لمَ لم يسلني عن جسر الرصافة وعيون المها؟

مع ابن المُقفّع

ولما أحس إبليس بالجوع، لاح له من بعيد قصر مضيء كأنياب الكلب. فانبسطت نفسه أن يحل ضيفاً على أمير باذخ ومائدة دسمة من لحم طير وإوز وفاكهة وحلوى.

وحين ضغط أزرار القصر بإصبعه، فتحت له الأبواب، ووقف رئيس الخدم عن شماله، ورئيس السقاة عن يمينه فعرفه، وقال له بخ بخ يا منصور، الدنيا أدوار وكذلك الآخرة، ما الذي بدّلك بالسلطان العظيم ساقياً وبالمليك نادلاً.

فأشار بيده إلى سيده. فإذا برواق يفضي إلى قاعة مرصوفة لؤلؤاً يجلس فيها سلطان معمم على كرسي من ورق النخيل، وبيده صولجان الملك، كتب عليه: «العدل أساس الملك».

ثم انصرف المنصور خاضعاً ذليلاً فخاطب إبليس السلطان بصوت عال، هذا مقامك يا أمير البيان، لم أجد لك في الوفاء نظيراً بين الناس، أين صاحبك عبد الحميد الذي فديته بنفسك فأبى، فكان الصدق والإخلاص لكما مذهباً. قال هو عندي كاتب مقرب، وصديق مجتبى، يدوّن أخبار الرعية ويتدبر شؤونها. أي رعية تقصد؟ قال رعيتي. هل نسيت الغيلم والقرد والقبّرة والفيل، وابن عرس وابن آوى، وهم يحضرون مجلسي كل يوم. ولهم مسرح يلعبون فيه ويمرحون، وهنا توقف السلطان عن الكلام، وصفق بيديه منادياً، أحضرْ كوباً من البرتقال يا أبا جعفر. لقد نشف ريق ضيفنا من الظمأ. فهتف الساقي سمعاً وطاعة يا مولاي. عندئذ قلب إبليس شفتيه من الدهشة، وقال باللَّه عليك يا ابن المقفع، كيف رضيت أن يكون هذا الطاغية ساقياً لك، أهذا جزاء من يقتل العباقرة من أمثالك. قال، قفّع الله أيدي أعدائه، هوّن عليك يا

أخي، فالطغاة كثر، وسيرتهم واحدة، ومآلهم واحد. كل مصلح عندهم يسمى زنديقاً، فيقتل أو يحرق أو ينفى أو يصلب. وما العرب إلا قوم خانعون، لسلاطينهم خاضعون، ولملوكهم مادحون، وإذا كان لا يفلح عرب ملوكهم عجم، نشدتك الله فهل أفلح عرب ملوكهم أعراب، بطانتهم أشرار، بهم قرم إلى سفك دماء الأحرار، والدس على الأخيار. بوشاية يقتلونك، وبأخرى يعفون عنك. بإشاعة يرفعونك، وبمثلها يخفضونك.

أجل، لقد قتلوني شر قتلة، ومزّقوا لحمي تمزيقاً، وقطّعوني إرباً، وأذاقوني نار الدنيا، فأذاقهم الله نار الآخرة. يا أبا الأبالسة هل تحسد أبا جعفر على هذا الجحيم، وهل هناك عذاب أقسى من الذل، وجزاء أبلغ من الحسرة والندم.

وهنا التفت ابن المقفع، إلى أحد أفراد رعيته، الديك الفصيح، القابع في قن من زجاج. فصاح ثلاث

صيحات إيذاناً بالحضور. فاحتشدت الرعية من كل ريش ومنقار، وظلف وحافر، ورفع الببغاء رأسه، منشداً قصيدته العصماء، في عزة وخيلاء، وهي بعنوان: «مصرع مولانا ابن المقفع»:

عندما ألقوني في النار
قطعة قطعة
كنت أستمتع برائحة اللحم المشوي
وأقرقش بلذة
عظامي المطهوة ببطء
وسط هذا الضجيج
وسط هذا الجحيم
كانت روحي تحلّق
كحمامة مطوّقة
حتى أرسل اللّه ملاكاً
على هيئة جرذ
بلا أسنان

لم يكن هناك غوث ولا مسعفون
لم يكن هناك جنازة ولا قبر
كان هناك تنور حامي الوطيس
إسمه السلطان.

مع الأعرج

ثم التقى رجلاً يمشي مائل الكتف، أعرج الساق، فقال ما خطبك، قال تزوجت في دار الغرور امرأتين، فملت لإحداهما أكثر من الأخرى، فعوقبت بما ترى.

وأحسبني مظلوماً. قال أُقصص عليّ قصتك معهما. قال تزوجت الأولى وكنت فتى مراهقاً في السابعة عشرة وهي تصغرني بسنتين، وبعد أن قضيت معها أربعين ربيعاً شوّلتْ وعبث تشرين بأوراقها، فقد حملت عشر مرات، وولدت سبع مرات، فران الهمّ على قلبها، وتكدّس الشحم على بطنها، واتسع مدخلها وتهدل صدرها. نشف عطرها، وجف ضرعها وغاض حبها، فلم تعد عصافيري تنقر تين نهديها، ولم تعد تصلح للمتعة إلا لماماً. فتزوجت عليها صبية بريئة، لحمها طري، ونهدها شهي، وحديثها خفي. لم

يزر عصفور بستانها، ولا عاثت الريح بأغصانها، فذاقتني وذقتها، فأعادت إليّ الشباب بعد الكهولة، والعافية بعد التعب، والقوة بعد الوهن، والضحكة بعد العبوس، وما لذة الدنيا إلا للناكحين، فنعم المتذوقون! وسرعان ما دبّت الغيرة بين الزوجتين، وأصبحتُ بينهما نعجة بين ذئبين، أو شاة بين عنْزتين قرناوين. فإذا نطحتني الأولى وقعتُ على الثانية، فردت لي النطحة بأحسن منها، فوقعتُ على الأولى، وهكذا كانت حياتي شجاراً في شجار، في الليل والنهار.

وأسكنت نعجتَيّ في حظيرة واحدة، وجعلت بينهما حجاباً، ورزقت من الصغيرة قرقورتين، ضممتهما إلى قطيعي الكبير. ولكنني لم أستطع أن أعدل بينهما وما ذنبي فقد قال العليم بذات الصدور: «ولن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم»، فصرت إذا نمت مع الصبية، غارت العجوز، وإذا سمعتْ من الطرف الآخر حساً ألصقت أذنيها بالجدار، فالويل كل

الويل، إذا رأتني خارجاً من الحمّام، وهي عجوز لا أرب لها في الرجال، تصرخ بي إعدل يا ظالم في توزيع الماء، الليلة لي وغداً لتلك، ضعه في أذني ولا تدع الماء يذهب هدراً لضرتي اللعينة. ولكنني عفتها فأصبحت أزورها مرة في الأسبوع، فمرة في الشهر، فمرة في السنة، إلى أن ماتت وأراحني الله منها. وكانت تتهمني تلك الشمطاء بأنني أؤثر أبناء الصبية على أبنائها. ويحها أعمت الغيرة قلبها، جعلت لسانها كالمبرد، ومنقارها كالحديد، تجتر كما تجتر العنزة الجائعة، وتلوي كما تلوي الحية اللاذعة، وقاني الله شرها إذ رحلت، فعرفت المسرة والهناء، في كنف هذه الحسناء.

ولِمَ تحسب نفسك مظلوماً؟ قال إن مثلي كمثل يعقوب أبي يوسف، أحبّ يوسف ابن زوجته الجديدة وأخاه، أكثر من إخوته أبناء القديمة، فاتهمه هؤلاء بالضلال، وأعمت الغيرة قلوبهم فألقوا يوسف في الجب، وحدث ما حدث والعاقبة للمتقين.

قال إبليس، العلة فيكما، فلولا حبكما الأعمى وانحيازكما، لما دبت الغيرة بين الإخوة، ولا بين النسوة، فلم يكن ذنب يوسف بل أبوه المذنب.

قال الرجل: لِمَ صفح الله عنه إذن ولم يجعله معوجاً مثلي. قال إن الله عاقبه في العاجلة، فابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم، ولاقى ما لاقى من الكرب العظيم، قال لكن الله أحسن آخرته وأكرم مثواه، قال كذلك أحسن مثواك وأكرمك ورزقك الجنة ترتع ما تشاء فيها، وخير لكتفك أن تميل من أن تبتر، ولساقك أن تعرج من أن تُكسر، وقد كنت ظلوماً جهولاً، وللنساء أكولاً.

فضحك الرجل حتى بانت نواجذه، وقال الحق على أتباعك الأشرار. هم زينوا لي النكاح، حتى نضب الإناء، فأصبحت أقرن كالتيس، وتحسس رأسه فلم يجد تلك القرون.

نشيد يهوذا

والتفت إبليس، فإذا برجل أجلح يخطب في جماعة من النساك، أنا يهوذا الاسخريوطي، أنا من قبّل المسيح بين عينيه، قبلة الغدر الجميلة، أنا هو الخائن إلى الأبد، نلت الجنة عن جدارة، ومثلت دوري بشطارة، فلولاي لما أصبح المسيح إلهاً، أنا من توّجه بإكليل الشوك، وصعد به إلى أعلى الصليب، أنا السجادة التي عبر عليها إلى قصره، أنا السجادة التي لثمت قدميه.

أنا هو يهوذا من سلالة إبليس المجيدة، أنا الطريق إلى المعجزة، أنا الجوهر الفاصل بين المسيحيَين، والزورق العابر بين الضفتين.

لقد حدّثوكم عن أبيكم آدم، وزعموا أن سيدي جاء ليمحو خطيئته، وذلك وهم البشر، فالشر كامن

فيهم كمون النار في الحجر، وإذا قدحته برز خيرهم في الشرر، وما الإلّه والإنسان والشيطان، سوى الإنسان في أطواره الثلاثة، ويهوذا ليس سوى طور من أطوار المسيح، والأطوار الثلاثة في الجنة، وأنا يهوذاكم الملعون كإبليس، أحظى بتكريم وتقديس، إنني أستحيل كل مساء صخرة عالية في أقاصي الجنة.

ونظر عن يمينه فرأى إبليس وكانا قد تعارفا، فأشار إليه وقال، يا سادتي هذا هو ذات من ذواتنا. ما أقفر الجنة من دونه، ومن دون أتباعه الغاوين.

انظروا هنالك ثمة بغلة ترتعي في أكمة، إنها امرأة نوح، وتلك نعجة تفيض بالحليب ليلاً ونهاراً، إنها حليمة السعدية، وهناك في المنعطف غزالة تمرح وتسرح، تلك ليلى العامرية، والثور الذي يطاردها هو قيس المجنون، له قرنان من لؤلؤ ثمين، فتبارك الصانع الحكيم. أنا هو يهوذا وهذا هو أخي وصديقي، نديما خمر لذة للعارفين.

الناقة المسحورة

وأقبل صاحبنا، يمتطي ناقة صهباء، إذا نظرتَ إليها وجدتها فضة، وإذا أعدت النظر وجدتها ذهباً، فكأنها التي عناها الشاعر بقوله:

كحلاء في برج صفراء في نعج
كأنها فضة قد مسها ذهبُ

ومر على قوم من الظرفاء، فيهم صاحب «خرقاء»، فلما رآها انتفض واقفاً وقال، هذه ناقتي ردت إلي، فتبسم الغاوي قائلاً، بخ بخ يا غيلان، هذه ناقتك جعلها الله ثوابك، ألا تذكر السلطان الذي مدحته فحرمك أجرك وهزئ بك إذ قال لم تمدحنا بل مدحتَ الناقة فنل ثوابك منها.

وقص على صحبه قصة الغفران، إذ قال لهم لا

تعجبوا لقد حوسبت حساباً يسيراً، كانت إدانتي بيتاً قلته وأنا عاشق مدنف:

تمام الحج أن تقف المطايا
على خرقاء واضعة اللثامِ

قيل لي لقد ابتدعت شعيرة منكرة، وأحدثت في الشعر سنّة جديدة، وقد شفع لي قولي:

ولست بمادح أبداً لئيماً
بشعري قد أفاد إليه مالا

ونادى الغاوي فزتَ يا غيلان، هلم معي فأردفه خلفه وانطلقا فعرّجا على ناقة في هيئة صخرة، قال هذه ناقة ثمود التي عقروها، أعادها الله إلى الصخرة التي خرجت منها. ثم عرجا على بكر في هيئة إنسان قال هذا عبيد الكلبي، جعله الله جملاً، دعوة صاحبنا عمرو بن بحر، إذ سأله في الدار العاجلة أبين قومك وبين الجمال قرابة؟ قال نعم من جهة الأخوال، قال إذن جعلك الله جملاً، قال لا يقلب الله الإنسان كائناً

شريفاً بل يقلبه كائناً حقيراً، وهكذا جعله ربك آية لأهل الجنة.

واستأنفا سيرهما، فدخلا وادياً فيه ماء وفير، فاستحالت الناقة حماراً وحشياً. ثم دخلا وادياً فيه مرعى وافر، فاستحالت الناقة ظبية إنسية، ثم عرّجا على وادٍ كثير الظلال والثمار، قال هذا جمى مي، وهي خالصة لك من دون النساء، وأشار إلى خبائها فاذهب إليها فانكحها وذق عسيلتها واحمد ربّ الصحراء، وإذا قضيت وطرك، فاذبح ناقتك وليمة عرس لها، ثم أنشد الشعر واشربْ في ليلٍ شيّبت رأسه النجوم.

الحمار السكران

شاهد جماعة من قدامى المكارين إبليس يصطحب حماراً وينادمه، فأخذهم الفضول، ثم الذهول، إذ كان يقدم إليه سطلاً من الخمر يسقيه، كلما دندن وحمحم مسعوراً وهو يضرب بحافره الأرض.

فتقدم أحدهم على استحياء قائلاً، يا سيد العارفين، ما قصة حمارك هذا يرفع أذنيه عندما يهيج فيهمهم ويدمدم ويكاد يعلك الرسن من شدة غيظه، فالتفت إبليس إليه وقال: فرّجْ كربك يا أبا صابر، واسرد عليهم قصتك العجيبة، عسى أن يفهم البشر بعض أسرار الحيوان، وأحضرَ إليه ثانية سطلين من الخمر، ومخلاة مُلئت سكراً وزبيباً، فطفق الحمار المتفلسف، يأكل ويشرب حتى سكر فارتخت أعضاؤه

وأخذته النشوة كما تأخذ الصوفي الحال. فمد لسانه الطويل وقال:

يا ابن آدم بُليت بأير طويل، وصبر قليل، وحملت من المشقة الشيء الثقيل. تعب كلها الحياة كما قال شاعركم، استغلني سيدي الآدمي أبشع استغلال، وكرسني لحمل الصناديق والحجارة، وكنت كالعبد المملوك، بل حسدت ذاك الخصي الذي ينام هانئ البال، أما أنا فكانت تهيج شهوتي، فيشرئب الطويل بين فخدي كالثعبان، وأنا أنعم بالحرمان، كما ينعم السجين بالقضبان، وألوب الليل بكامله، متعطشاً إلى وصال أتاني الجميلة، جائعاً إلى لحمها الشهي البض، وعفت الشراب العكر، والشعير الفاسد، والحشيش اليابس، وأضربتُ عن الطعام ثلاثة أيام ولم يأبه لي أحد.

إلى أن جاء العيد، وكنت مربوطاً إلى جذع السنديانة، أمام البيت. وقد أخرجت من القبو إلى نور

الشمس، فرأيت صاحبتي أمامي فهاجت لواعجي، وفاضت مدامعي، ولسان حالي يقول:

أقول وقد لاحت أمامي بثينتي
أيا جارتا هل ترفقين بحالي

أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا
تعالي أطارحك الغرام تعالي

آه ما أقسى وما أعذب الحب العذري، وكان كلانا يغازل صاحبه سراً، تغمض عينيها عندما تراني وتجهش بالنهيق، آه ما أحلى نهيقها، فمتى أذوق يوماً ريقها، صاحبة المشفر الناعم، والأنف الصغير الأفطس، والعينين الدعجاوين، والرقبة الملساء، والذيل الرقيق الطويل، مثل ذيل الحصان الأصيل.

كان الوقت عشية العيد، وأنا أبكبك حولها وأدور يمنة ويسرة لعلي أقطع الرسن، وأقضي من جارتي الوطر.

ورقّ لحالي أحد الجيران من الإنس فصعد إلى سطح بيته، وصاح بصاحبة الأتان:

فكي رسن الحمار يا حليمة، الليلة ليلة عيد، دعيه يعيّد، دعيه يفرح، دعيه ينبسط، دعيه يسكر كالناس. فكي المرسة يا حليمة، يا قاسية القلب يا عديمة الإحساس. ولكن المرأة تظاهرت بالطرش ودخلت مأواها.

عندئذ نزل الرجل عن السطح، وجاء مهرولاً إلي، وفك الرسن، آه كم دهشت وفرحت، وركعت على قدميه باكياً شاكراً، ثم انتفضت كالطير على فريستي وأوسعتها نهشاً وعضاً، ثم امتطيتها قسراً، وأدخلت متاعي في متاعها، فهرع الناس إلينا لينغصوا سعادتنا، وسمعتهم يصيحون هذا حمار أبو سليم يعتدي على المسكينة، سال الدم من رقبتها أنقذوها أنقذوها. وأفقت من نشوتي بعد أن انهالوا عليّ ضرباً بماسورة خشبية صلبة، ثم وضعوها بين فرجينا، ونزعوا الميل من المكحلة، فأخذ الحليب يقطر على الأرض، أرطالاً أرطالاً. وزعموا أنها حملتْ سفاحاً مني،

فتألمتُ ومت بعد ليال كمداً، ولبثتْ بعدي أرملة عفيفة لم تقرب أحداً من بني جنسها ولم يقربها أحد.

أيها الإنسي لعلك تقول في نفسك كيف دخل هذا البهيمة الجنة، إعلم أنني حوسبت وعوقبت، ثم نلت أسباباً تخفيفية، فالصبر عن الشهوة جهاد، والضرورات، كما تعلم تبيح المحظورات. وهنا توقف الحمار الثمل عن الكلام، ودنا من نديمه موشوشاً، هيا نبحث عن تلك الأتان، ولكن أخبرني يا سيد العارفين هل في الجنة مكان للحب العذري؟

عندما وضع الميزان

قال إبليس عندما وُضعَ الميزان، حضر ابن نوح الحساب، فتعادلت حسناته وسيئاته، وكان ينقصه أوقية صغيرة من المعروف ليدخل الجنة، دون منّة.

قال أحدهم أدخلوه بشفاعة أبيه، فهاج الناس وماجوا، وشرعوا في جدل بيزنطي عقيم، منهم من قال إن هذا ليس ابن نوح ليس من صلبه، وآخرون زعموا أنه ابنه ولكنه فسق عن أمر ربه.

وكلكم تذكرون يا إخوتي أن ابن نوح هذا كان من المغرقين، إذ أبى دخول الفلك ولاذ بالجبل، وحمل السيل جثته إلى القمة. مسكين، لم ينج مع الناجين، كان أقل حظاً من سنجاب، وأقل حظوة من خنزير. وعندما اشتد الجدل وبلغ ذروته، صحت في القوم قفوا سأفصل بينكم أيها المختصمون. فالناس لا

يؤمنون إلا بالدليل البيّن والحجة الساطعة، وأردفتُ إن أباكم إبليس يعرف كيدكم، وقد عجن كبيركم وصغيركم، وشهد في الدنيا ما لم تشهدوه، وعرف ما لم تعرفوه، وأدرك ما لم تدركوه، ولكني سأرد كيدكم إلى نحركم.

والتفتّ، تابع إبليس، إلى أحد معاوني فقاد ابن نوح إلى المختبر الإلّهي، وأخذ عينة من دمه لفحص حمضه النووي، وبعد ثلاثة أيام حصحص الحق، فأيقنوا أنه ثمرة متاع عابر، وأن المرأة لم تحفظ نفسها فطأطأوا الرؤوس وانصرفوا. فبهت السامعون وقالوا: أحقاً هذا! هل يعقل أن تخون امرأة النبي وأن تفسد نسله.

قال إبليس: هوّنوا عليكم، لا تزر وازرة وزر أخرى، الخيانة ملح النفوس. والفساد في أصل الطباع، وربك أعلم بالناس، تجاوز عنهم فركب الجميع سفينة النجاة.

أهل اليمين وأهل الشمال

في باب الجنة، صفان متقابلان، ألقى عليهما الغاوي نظرة ارتياب وسأل رضوان من هما. قال هم أهل اليمين وأهل الشمال، سيق أهل الشمال إلى أسافل الجنة، وحرموا الصعود إلى فراديسها. تلك نارهم واحسرتاه.

وإذا ركبت مصعداً ضوئياً، عرج بك إلى الغرف العالية والأرجاء الفسيحة. طوبى لساكنيها وهم أهل اليمين.

ولم تذمون أهل الشمال، سأل الغاوي فأجاب الخازن: أنتم معشر الشياطين تأكلون باليد اليسرى، ومعشر الإنس يأكلون باليمنى، كما أُمروا أن يأتوا الغائط باليسرى، وأن يدخلوا المساجد باليمنى.

قال الغاوي، قلوب الناس عن شمالهم فأهل

الشمال هم أهل القلوب، ويا ليت شعري مَن أهل العقول؟

قال الخازن باليمين يُؤدى القسم، وبالشمال تزال نجاسة البدن، أما علمتَ أن الطير إذا زجر فطار يميناً هو فأل خير، وإن طار شمالاً فهو فأل شر. وهل علمتَ أن ريح الجنوب تفرج الكروب، وأن ريح الشمال، تبشر بالخراب.

قال الغاوي، ما هي إلا أسماء سميتموها وأباطيل اخترعتموها.

وما الفرق لعمري بين يمين وشمال، فعن شمال الشمال يمين، وعن يمين اليمين شمال، واللَّه يخاطب الناس على قدر عقولهم، ولذا ميّز بين الطائفتين، أي بين من أوتي الكتاب بيمينه وبين من أوتي الكتاب بشماله، فالعبرة لما في الكتاب، وما شأن اليدين.

قال الخازن تباً لك أيها الأعسر، جعلتَ نفسك خصيم الخائبين، وإمام المارقين، وقديماً قيل إن الطبع غلب التطبع.

قال الغاوي: هل ترى الفضل في اليد اليمنى، ولا تراه في الدماغ الأعسر؟

والدماغ آمر اليد وقائدها.

فسكت الخازن وتجهم عندئذٍ ضحك الغاوي وقال له تعال نقتات الفكاهة والمزاح، فقد اشتاقت إلى السفن الرياح.

وصف الجنة

قال إبليس ليس في الجنة حدود، فالأرض للجميع، ليس هناك شرقي ولا غربي، ولا غني ولا فقير، والفرح فاكهة دائمة.

في الجنة جبال وسهول وأودية وأنهار. لكن الجبال ليست ثابتة فقد يصبح الجبل سهلاً والسهل وادياً والوادي جبلاً، وقد يصبح الشجر حجراً والحجر طيراً وهكذا.

الناس في الجنة أمة واحدة، والوحوش لم تعد وحوشاً بل أصبحت أوانس، والناس لا تعرف الشيخوخة، جميعهم في سن الثالثة والثلاثين نساءً ورجالاً. وإذا نكحتَ امرأة نكحها آخر، لا تقع في الزنى، لأنها تعود إليك مطهرة بكراً كما خلقت أول مرة.

الناس في الجنة على دين واحد، دين السعادة الأبدية، الناس سواسية كأسنان الأطفال.

الناس في الجنة لا يفسدون فيها ولا يسفكون الدماء حتى العذارى لا يرشح منهن الدم عندما يطمثهن إنس أو جان.

قال إبليس، والحزن في عينيه، وحده إبليس الذي ضاجع كل نساء الأرض، ما زال يمارس العادة السرية.

قمر الجنة

في ليل الجنة يبزغ القمر، فليلها نهار ساطع، ونهارها ليل مشعشع. فقد أكمل الزمان دورته واستراح. الشمس أخفت ظلها والقمر شاهد لا يعرف الأفول.

وسُحِرَ ساحر البشر بهذه الفتنة الزرقاء، وهز رأسه نشوة بالقمر. ثم أشار بإصبعه إلى الأعلى وقال:

أنـظـرْ إلـيـه كـزورق مـن فـضـة
قـد أثـقـلـتـه حـمـولـة مـن عـنـبـرِ

لك الله يا ابن المعتز بدنياه، كم نفثتَ في روحي من السحر، قال إبليس شيخ العصاة في الأولى. ولكن الشيخ الذي عاقر الشعراء، جذب ابن هانئ من لحيته، وقال حبذا لو يغيب القمر أو يصغر. والهفتا لقمير ليلة ذي دوران وعلى أبي الخطّاب السلام.

قال النواسي حبذا القمر خمرة تفور في رأسي، وجارية تضحك في كأسي. ألم أقل غفر الله لي:

تسقيك من طرفها خمراً ومن يدها
خمراً فما لك من سكرين من بدِّ

لي نشوتان وللندمان واحدة
شيء خصصت به من دونهم وحدي

إي واللَّه، لي نشوتان إلا أن خمر الجنان لا غول فيها، فعساها تشربني.

ولو مزجت إصبعي بالماء لأصبح خمراً، فيا أيها العطاش لكم في شعري العزاء، فتذاكروه، واشربوه كما تشرب الفجر المطايا.

في ليل الجنة يبزغ القمران.

الخاتمة

وبعد أن تعب إبليس من الطواف، جلس كفلاح يستريح من حرث الأرض.

وتجمهر حوله أصحاب الأجنحة مستفسرين. فادّهن بالزيت المقدس ثلاث مرات، وسبّح من أعماق قلبه هاتفاً: الحمد لك يا رب. ثم التفت إليهم وقال.

إيه إخوتي، أيها الأشرار الطيبون. لو لم تكونوا أشراراً لما كنتم طيبين وخيّرين. وفي دم كل مخلوق إنسيّ وجنّي، امتزج العنصران. وأنتم لا فضل لكم في طهارتكم. ولا شأن لكم في قداستكم. فلم تعرفوا وجع الشهوة ولا ألم الولادة.

إن مَثَل الإنس والجن عندي، كمَثَل سيزيف والصخرة، يرفع صخرته إلى قمة الروح، فتدحرجها الشهوة إلى القاع.

إيه إخوتي، في كل روحٍ نارها وجنتها. فلم تكن نار ربكم إلّا وعيداً ورمزاً، ولم تكن عقوبته إلا تطهيراً وزجراً.

أيها الملائكة، لن تكون عقوبة ربكم مليون ضعفاً. فاللَّه يعلم أن في عباده حمقاً وضَعفاً. وقد أصدر القادر عن الثقلين عفواً.

إيه إخوتي، أيها الأشرار الطيبون. آه ما أصعب أن تكون ملاكاً. آه ما أشقى أن تظل ملاكاً. حطمي القيود يا معصيتي. واهدمي الأسوار يا أغنيتي.

وفيما كان الجميع محملقين فيه ومندهشين. هزّ إبليس جناحيه هزّة عظيمة، ثم حلّق أمامهم في الفضاء المترامي، بعيداً بعيداً.

المحتويات

العازف 7
مع الأنبياء 9
إبليس يدخل الجنة 13
مع آدم وحواء 15
حواء وصاحباتها 20
الحاج الأحمر 23
القرد الأصلع 28
الضفادع 31
وادي الفراشات 33
جدتي 37
الحمار الضال 42
الملك الثور 47
الأبله 53
الشاعر 57

الراعي 61
الأرملة 64
مع أبي العلاء 70
إبليس والخضر 76
جنة الغلمان 82
مع ابن المُقفّع 86
مع الأعرج 91
نشيد يهوذا 95
الناقة المسحورة 97
الحمار السكران 100
عندما وضع الميزان 105
أهل اليمين وأهل الشمال 107
وصف الجنة 110
قمر الجنة 112
الخاتمة 114

رواية محبوكة بلغة شعرية، تمزج الواقع بالخيال والحلم بالأسطورة. تعبث بوقار ببعض المسلّمات الفكرية من خلال استحضار شخصيات تراثية ونماذج إنسانية وحيوانية، تحاور إبليس في العالم الآخر، كاشفة عن أسرارها وأمانيها الدفينة. وذلك في مناخ من العفوية والطرافة والتشويق.

د. محمود عثمان، أديب وشاعر لبناني مواليد 1969.

- حائز إجازة في اللغة العربية ودكتوراه دولة في الحقوق من الجامعة اللبنانية.
- مارس المحاماة والتعليم الثانوي والجامعي.

صدر له:

- قمر أريحا (شعر)، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، 1999.
- بيضة الرخ (شعر)، دار الحداثة، بيروت 2001.

له بعض المؤلفات السياسية والدستورية.

ISBN 978-9953-71-625-1
9 789953 716251